الباب السابع

في ذكر غزواته العديدة وفتوحاته السعيدة وماجرى في زمانه من الأمور الغريبة والحوادث العجيبة من ولادته إلى وفاته

سنة إحدى عشر وخمسمائة

فيها ولد نور الدين محمود

وفيها غرقت سنجارمن سيل المطر، وهلك فيها خلق كثير حتى إن السيل أخذ باب المدينة وذهب به عدة فراسخ، واختفى تحت التراب الذي جره السيل ثم ظهر بعد سنين، ومن أعجب ماحكي أن السيل حمل مهدا فيه طفل، فعلق المهد في شجرة، ونقص الماء وسلم ذلك الطفل، وغرق غيره من الماهرين في السباحة.

وفيها زلزلت إربل وبغداد وغيرهما من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة، ووقع بالجانب الغربي من بغداد دور وحوانيت على أهلها.

وفيها هجم الفرنج على ربض حماة، وقتلوا خلقا كثيرا ورجعوا إلى بلادهم.

وفيها توفي السلطان(غياث الدين) محمد بن ملكشاه السلجوقي سلطان بلاد العراق وخراسان وغير ذلك من البلاد الشاسعة والأقاليم الواسعة، وكان من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، وقام بالأمر بعده ابنه محمود وله أربع عشرة سنة، وفرق خزائنه في العسكر، وقيل كانت أحد عشر ألف ألف دينار ومايناسب ذلك من العروض.

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة

وفيها مات بغدوين الذي افتتح القدس وكان جبارا خبيثا شجاعا، هم بأخذ مصر، وسار في جموعه حتى وصل بلبيس، ثم رجع عليلا فمات بسبخة بردويل، فشقوه وصبروه ورموا حشوته هناك.

قال الذهبي: فهي ترجم إلى اليوم، ودفن بالقمامة، وتملك القدس بعده القمص صاحب الرها، وكان قد قدم القدس زائرا، فوصى له بغدوين بالملك بعده.

وفيها توفي الخليفة المستظهر، وولي بعده أبو منصور الفضل ولقب بالمسترشد بالله.

ومن الاتفاق الغريب أنه لما مات السلطان ألب أرسلان، مات بعده الخليفة القائم، ثم لما مات السلطان ملكشاه مات بعده الخليفة المقتدي، ثم لما مات السلطان محمد، مات الخليفة المستظهر بالله.

هذا وفيها كان حريق كبير ببغداد واحترقت الريحانين ومسجد ابن عبدون وفيها قبض علي ابي طاهر بن الخزري صاحب المخزن وأعدم وأخذ من داره أربعمائة ألف دينار.

سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

فيها خرج على المسترشد أخوه أبو الحسن بن المستظهر بالله، فمضى إلى واسط، ودعا إلى نفسه، واجتمع معه جيش وتملك واسط وأعمالها وجبى الخراج، وشق ذلك على الخليفة، فبعث ابن الأنبارى كاتب

الانشاء إلى دبيس وعرفه ذلك، وقال: إن أمير المؤمنين معول عليك، وجهز صاحب جيشه عنانا في جمع كبير، فلما سمع أبو الحسن ذلك ترحل من واسط في عسكره ليلا، فأضلوا الطريق، وساروا ليلهم أجمع حتى وصلوا إلى عسكر دبيس، فلما لاح لهم العسكر، انحرف أبو الحسن عن الطريق، فتاه مع عدد من خواصه وذلك في تموز ولم يكن معهم ماء وأشرفوا على التلف فأدركه نصر بن سعد الكردي فسقاه حتى عادت نفسه إليه، ونهب ماكان معه من ماله وحمله إلى دبيس إلى النعمانية، فأقدمه إلى بغداد، وخيم بالرقة، وبعث به إلى المسترشد بالله بعد تسليم عشرين ألف دينار قررت عنه، وكانت أيامه أحد عشر شهرا وشهر وزيره ابن رمهويه على جمل ثم قتل في الحبس، ودخل الأمير أبو الحسن على أخيه المسترشد بالله فقبل قدمه فبكيا معا، ثم قال له: فضحت نفسك وباعوك بيع العبيد، وأسكنه داره التي كان فيها وهو ولي عهد، ورد جواريه وأولاده وأحسن السيرة إليه، ثم شدد عليه بعد ذلك.

وفيها خطب بولاية العهد للأمير أبي جعفر منصور بن المسترشد بالله وله اثنتا عشرة سنة.

وفيها كانت الوقعة بين السلطان سنجر ومحمود ابن أخيه، وذلك أن سنجر لما بلغه موت السلطان محمد قصد العراق عازما على أن يملكه، فلما سمع محمود بحركة عمه سنجر نحوه، راسله ولاطفه، وقدم له تقادم، فأبى إلا القتال أو النزول له عن السلطنة، فتجهز محمود، وصمد معه ثلاثون ألفا، وأقبل سنجر في نحو مائة ألف، وكانت الوقعة بصحراء ساوه، وكان مع سنجر خمسة ملوك على خمسة أسرة، وأربعون فيلا عليها البركصطوانات والبراواب والزينة الباهرة وخلق من الإسماعيلية، فلما التقوا هبت ريح سوداء أظلمت الدنيا، وظهر في الجو حمرة منكرة، وآثار مزعجة، وخاف الناس، ثم انكشفت الظلمة واقتتلوا، فانكسرت ميمنة سنجر ثم ميسرته، وثبت هو في القلب وحده، وتفرق

أكثر جيوشه في النهب، فحمل سنجر بالفيلة فولت الخيل منها فتأخر محمود ولم ينهزم، ولم يتبعه سنجر لأنه رأى جيشه قد انهزم أكثره، وثقله نهب، وقتل كثير من أمرائه وأسر وزيره، وأرسل إلى ابن أخيه يقول: أنت ابن أخي وولدي وما أؤاخذك لأنك محمول على ماصنعت، ولاأواخذ أصحابك لأنهم لم يطلعوا على حسن نيتي لهم، فقال محمود: أنا مملوكه، ثم جاء بنفسه وسنجر قد جلس على سريره فقبل الأرض، فقام سنجر فاعتنقه وأجلسه معه، وخلع عليه خلعة عظيمة، وكان على سرج فرس الخلعة جوهر بعشرين ألف دينار، وأكل معه، وخلع على أمرائه وأفرد له أصبهان يكون حاكما عليها وعلى مملكة فارس وخوزستان، وجعله ولي عهده من بعده، وزوجه ابنته، ثم عاد إلى خراسان، ثم جاء رسله بالتقادم إلى الخليفة وهي ثلاثون تخت ثياب وتحف وعشرة مماليك، واقطاع إلى الخليفة بخمسين ألف دينار، وللوزير ببضعة آلاف دينار.

وفيها سارت الفرنج إلى مدينة حلب وفتحوها وملكوها(٢٠)، وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا، فسار إليهم صاحب ماردين إيل غازي بن أرتق في جيش كثيف، فهزمهم عنها، ولحقهم إلى جبل قد تحصنوا فيه، فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم يفلت منهم إلا اليسير، وأسر من مقدميهم نيفا وسبعين أسيرا، وقتل سيرجال صاحب أنطاكية، وحمل رأسه إلى بغداد.

وفيهاظهر قبر سيدنا ابراهيم الخليل وقبر اسحاق ويعقوب صلوات الله عليهم، ورآهم كثير من الناس لم تبل أجسادهم وعليهم قناديل من ذهب وفضة قاله حمزة بن أسد التميمي في تاريخه على ماحكاه ابن الأثير رحمه الله تعالى.

سنة أربع عشرة وخمسمائة

فيها كانت وقعة عظيمة بين الكرج والمسلمين بالقرب من تفليس

ومع الكرج كفار من القفجاق فقتلوا من المسلمين خلقا كثيرا، وغنموا أموالا جزيلة،وأسروا نحواً من أربعة آلاف أسير، ونهب الكرج تلك النواحي، وفعلوا أشياء منكرة، وحاصروا تفليس، ثم ملكوها عنوة بعدما أحرقوا القاضي والخطيب حين خرجوا إليهم يطلبون الأمان، وقتلوا عامة أهلها، وسبوا الذرية، واستحوذوا على الأموال فلا حول ولاقوة إلا بالله.

وفيها خطب للسلطان سنجر ولابن أخيه محمود معا في موضع واحد، وسمي كل واحد شاهنشاه، ولقب سنجر عضد الدولة، ولقب محمود جلال الدولة.

سنة خمس عشرة وخمسمائة

وفيها انقض كوكب صارت من ضوئه أعمدة عند انقضاضه، وسمع له عند ذلك صوت هزة كالزلزلة.

وفيها هبت بمصر ريح سوداء ثلاثة أيام فأهلكت خلقا كثيرا من الناس والدواب.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالحجاز تضعضع بسببها الركن اليماني زاده الله شرفا، وتهدم شيء من حرم رسول الله ﷺ بالمدينة الشريفة.

وفيها احترقت دار المملكة التي استجدها بهروز الخادم بأصبهان، وكان بها السلطان نائما على سطح، فنزل وهرب في سفينة، وذهب من الفرش والآلات والجواهر مايزيد قيمته على ألف ألف دينار، ولم يبق فيها شيء من الأثاث سوى الياقوت الأحمر، غسل الغسالون التراب وظفروا بالحلي والذهب الذي قد سبك، ولم يبق من الدار ولاخشبة، وأمر السلطان ببناء دار له غيرها، وأعرض عن الدار التي احترقت، وقال: إن أبي لم يمتع بها ولا امتد بقاؤه بعد انتقاله إليها، وذهبت أموالنا فيها.

وفيها احترق بأصبهان جامع كبير أنفقت عليه أموال كثيرة، يقال إنه غرم على أخشابه ألف ألف دينار، وفي جملة ما احترق خمسمائة مصحف ثمينة منها مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه.

وفيها كانت ببغداد أمطار عظيمة متوالية، ثم وقع ثلج عظيم، وكثر حتى كان علو ذراع.

قال ابن الجوزي وقد ذكرنا في كتابنا هذا، يعني المنتظم، أن الثلج وقع في سنين كثيرة في أيام الرشيد وأيام المقتدر وأيام المطيع وأيام الطائع والقادر والقائم، وماسمع بمثل هذا الواقع في هذه السنة، فإنه بقي خمسة عشر يوما ماذاب، وهلك شجر الأترج والليمون، ولم يعهد سقوط ثلج بالبصرة إلا في هذه السنة.

وفيها جلس الخليفة المسترشد في دار الخلافة في أبهة عظيمة، والبردة على كتفه والقضيب بين يديه، وجاء الأخوان الملكان محمود ومسعود ابنا محمد بن ملشكاه فوقفا بين يديه، وقبلا الأرض، فخلع على محمود سبع خلع بطوق وسوارين وتاجا، وأجلس على كرسي، ووعظه الخليفة وتلا عليه قوله تعالى:(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)[٢١] وأمره بالإحسان إلى الرعية، وعقد له الخليفة اللواء بيده، وقلده الملك، وخرجا من بين يديه ونزلا إلى دارهما والجيش بين أيديهما في أبهة عظيمة.

وفيها مرض وزير السلطان فعاده، وعافاه الله تعالى، وهنأه السلطان بالعافية، فاحتمل واحتفل، وعمل—أعني الوزير— وليمة عظيمة إلى الغاية فيها الملاهي والأغاني نابه عليها خمسون ألف دينار.

وفيها حكى ابن الجوزي عن خط من خبره بالصدق أنه كان في سوق نهر المعلى، ومر بين يديه رجل على رأسه قفص زجاج وهو مضطرب

المشي، يظهر منه عدم المعرفة بالحمل، فما زلت أترقب سقوطه، قال: فسقط فانكسر الزجاج، وبهت الرجل ثم بكى، وقال: هذا والله جميع بضاعتي، والله لقد أصابني بمكة مصيبة عظيمة توفي على هذه، واجتمع حوله جماعة يرثون له ويبكون حوله، وقالوا: ما الذي أصابك بمكة؟ قال: دخلت قبة زمزم وتجردت للاغتسال، وكان في يدي دملج فيه ثمانون مثقالا، فخلعته واغتسلت، وأنسيت وخرجت، فقال رجل من الجماعة: هذا دملجك خذه، له معي سنين، فدهش الناس من إسراع جبر مصيبته.

وفيها قتل الملك الأفضل أحمد بن أمير الجيوش بدر الجمالي مدبر دولة الفاطميين، وخلف من الأموال مالم يسمع بمثله، قال ابن خلكان خلف ستمائة ألف ألف دينار عينا، ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب أطلس وثلاثين راحلة أحقاق ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار، ومائة مسمار ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس، في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب، بلون من الألوان أيما أحب منها لبسه، وخمسمائة صندوق(كسوة لخاصه من دق تنيس ودمياط) وخلف من الخيل والرقيق والبغال والمراكب والطيب، والحلي مالايعلم قدره إلا الله تعالى، وخلف من البقر والجواميس والغنم مايستحيي الإنسان من ذكر عدده، وبلغ ضمان ألبانها في سنة وفاته ثلاثين ألف دينار، ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما إبر ذهب برسم الجواري والنساء.

سنة ست عشرة وخمسمائة

فيها قتل وزير السلطان محمود أبو طالب السميرمي قتله باطني، وكان قد برز للمسير إلى همذان، وكانت قد خرجت زوجته في مائة جارية بمراكب الذهب، فلما بلغهن قتله رجعن حاسرات الوجوه وقد هن بعد العز.

وفيها ظهر معدن النحاس بديار بكر قريبا من قلعة ذي القرنين.

سنة سبع عشرة وخمسمائة

فيها ختن الخليفة المسترشد أولاده وأولاد أخيه، فزينت بغداد وعمل الناس القباب، وعملت خاتون قبة بباب النوى علقت عليها من الديباج والجواهر ما أدهش الأبصار، وعملت قبة على باب السيد العلوي عليها غرائب الحلي والحلل، من ذلك ستران من الديباج الرومي طول الستر عشرون ذراعا على الواحد اسم المقتفي بالله، وعلى الآخر اسم المعتز بالله وبقوا أسبوعا.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة

فيها ظهرت الباطنية بآمد، فقاتلهم أهلها فقتلوا منهم سبعمائة نفس، ولله الحمد.

وفيها أخذت الفرنج صور من طغتكين، واستنجد طغتكين بالمصريين فما نجدوه، ولما أشرف طغتكين على الهلاك راسل ملك الفرنج على أن يسلمها إليه ويمكن أهلها من حمل مايقدرون عليه من الأمتعة فأجابه إلى ذلك، ووفى بالعهد وتفرق أهلها في البلاد، ودخلتها الفرنج في اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وكانت من أمنع حصون المسلمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ودامت في يدهم إلى سنة تسعين وستمائة.

سنة تسع عشرة وخمسمائة

فيها قتلت الباطنة القاضي أبا سعيد محمد بن نصر بن منصور الهروي بهمذان، وكان قد أرسله الخليفة إلى السلطان سنجر يخطب له ابنته.

وفيها قصد دبيس والسلطان طغرل بغداد ليأخذاها من الخليفة، فلما قربا منها برز إليهما الخليفة في جحفل عظيم والناس بين يديه، وعليه السواد والبردة، والقضيب بيده، ثم ركب الناس بعد ذلك، فلما أمست الليلة التي يتقاتلون في صبيحتها، أرسل الله عليهم مطرا عظيما، ومرض السلطان طغرل في تلك الليلة، فتفرقت تلك الجموع ورجعوا على أعقابهم خاسئين خائبين.

سنة عشرين وخمسمائة

فيها استفحل أمر بهرام داعي الباطنية بحلب والشام وعظم الخطب، ثم التمس من طغتكين حصنا يحتمي به، فأعطاه بانياس، فسار إليها، وتجمع إليه أوباش، فعظمت البلية به وبهم، وتألم العلماء وأهل الدين، وأحجموا عن الكلام فيهم والتعرض لهم خوفا من شرهم، لأنهم قتلوا جماعة من الأعيان، وصاروا بحيث لاينكر عليهم ملك ولاوزير(ولايفل حد شرهم متقدم ولاأمير) فلا حول ولاقوة إلا بالله.

سنة إحدى وعشرين وخمسمائة

فيها جاء الخبر بأن السلطان سنجر قتل من الباطنية إثني عشر ألفا، وقتلوا وزيره المعين لأنه كان يحرض عليهم وعلى استئصالهم فتحيل رجل منهم وخدم سائسا لبغال المعين، فلما وجد الفرصة وثب عليه وقتله، وقتل بعده، وكان هذا الوزير ذا دين ومروءة وحسن سيرة.

وفيها فـوَّض السلطان شحنكيَّةَ بغداد إلى عماد الـدين زنكي والـد نور الدين ثـم وَلِيَ بعدَ مـوت عزِّ الديـن مسعود بـن آق سنقر في هـذه السنة الموصل، فرتب الأمور على أحسن نظام وأحكمِ قاعدة.

وكان الفرنج قد اتّسعت بلادُهـم، وكثرت أجنادهم، وامتدّت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضَعُـفَ أهلُها عن كفّ عـاديتهم، وتتابعـت غزواتهم، وامتدّتْ مملكتهـم من ناحية مـاردين وشبختان إلى العريـش، ولم يتخللها من ولايـة المسلمين غيرُ حلب وحماة وحمص ودمشـق، وكانـت سراياهـم تبلغ ديار بكـر إلى آمد، ومن الجزيرة إلى نصيبين ورأس العين، وأمـا أهلُ الرقة وحران فكانوا معهـم في ذُل وهوان، وانقطعت الطريق إلى دمشق إلاّ على الرحبة والبريـة، ثم زاد الأمرُ وعظم الشرّ حتى جعلـوا على أهل كلِّ بلـد جـاورهم خـراجاً، ثـم لم يقنعـوا بـذلك حتـى أرسلـوا إلى دمشـق واستعرضـوا الرقيـق ممن أخـذ من الـروم والأرمن وسـائر بلاد النصرانيـة، وخيّروهم بين المقـام عند أربـابهم والعود إلى أوطـانهم، فمن اختـار المقام تركـوه، ومن آثر العـود أخذوه، ونـاهيك بهذه الحالة ذلـة للمسلمين، وأما أهل حلـب فإن الفرنـجَ أخذوا منها مناصفـة أعمالها حتى في الرحـا التي كانـت على باب الجنـان، وبينها وبين المدينـة عشرون خطوة، وأمـا باقـي بـلاد الشام فكـان حـالُها أشدّ حـال مـن هذيـن البلـدين، فلما نظـر الله سبحانـه وتعالى إلى بلاد المسلمين وولاها عمادَ الـدين زنكي، غزا الفـرنجَ في عُقر دارهـم، وأخذ للموحـدين منهم بثأرهـم، واستنقذ منهم حصـوناً ومعاقل، وسيـأتي تفصيل ذلك ومافتحـه من البلاد الإسلاميـة إن شاءَ الله تعالى.

وفيها ملك عماد الـدين زنكي والد نور الـدين مدينة حلـب وماحولها من البلاد.

وفيها تحارب الخليفةُ والسلطان محمود ببغداد، فثارت العوام مع جيش

الخليفة، فكسروا جيش السلطان، وقتلوا خلقاً من الأمراء، وأسروا ونهبوا دار السلطان ودار وزيره وجرت خبطة عظيمة جداً، ونالت العوام من السلطان، وجعلوا يقولون له: ياباطني، تترك الفرنج والروم وتقاتل الخليفة! ثم حصل الصلح بينهم وتحالفوا، ودخل جيشُ السلطان إلى بغداد وهم في غاية الجهد من قلة الطعام عندهم في المعسكر، وقالوا: لو لمْ نصالح لمِتنا جوعاً، وظهر من السلطان حلم كبير على العوام.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة

فيها فتح عماد الدين زنكي جزيرةَ ابن عمر ثم مدينة إربل، وعظم شأنه، واتسعت دولته.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

فيها ملك عماد الدين زنكي سنجار والخابور والرحبة، وافتتح نصيبين.

وفيها أظهر عماد الدين زنكي أنه يريد جهادَ الفرنج، وأرسل إلى تاج الملوك بوري يستنجده، فبعث إليه عسكراً بعد أن أخذ عليه العهدَ والميثاق، وأمر ولده سونج أن يسيرَ إليهم من حماه ففعل، فأكرمهم عمادُ الدين زنكي وطمأنهم أياماً ثم غدر بهم، وقبض على سونج وعلى أمراء أبيه، ونهبَ خيامَهم وحبسهم بحلب وهرب جندهم، وسار من يومه إلى حماة واستولى عليها، وحاصر حمصَ مدةً فلم يقدر عليها، فرجع إلى الموصل، ولم يطلق سونج ومن معه حتى اشتراهم أبوه بخمسين ألف دينار.

قال الذهبي: ثم لم يتم ذلك ومقت الناسُ زنكي على قبيح فعله. انتهى.

وحكى صاحب الروضتين عن الرئيس أبي يعلى أن زنكي طلب في إطلاق سونج وأصحابه خمسين ألف دينار، فاتفق حضور دُبيس بن صدقة من العراق منهزماً، فطلبه زنكي، وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه.

وفيها اتفق أن بهرام الإسماعيلي داعي الباطنية وكان مقيماً ببانياس كما تقدم، فاستدعى برقاً بن جندل مقدم وادي التيم وقتله صبراً بين يديه لالسبب، فتألم الناس لذلك لشهامته وحسنه وحداثة سنة، وهاج أهلُ وادي التيم طالبين بثأره مع أخيه الضحّاك بن جندل، فحشدوا وقصدوا بانياس، وجمع بهرام أيضاً وخرج إليهم، فبغتوه صباحاً وأعجلوه قبل أن يركب من مخيَّمه هو وأصحابه، فقتلوه وأصحابه، أشدَّ قتلة، وأخذوا رأسَه وطافوا به في بلادهم، ثم بعثوه إلى خليفة مصر الآمر لأنهم كانوا ينتمون إليه ويقولون بانتظار الحاكم ليعود من غيبته، ويقسمون في أيمانهم بحقه، فبعث إلى أعيان أهل الوادي الخلع والافتقاد، ثم قام بعد بهرام صاحبه اسماعيل العجمي، فحذا في الإضلال والإستغواء حذوه، وعامله الوزير المزدقاني بما كان يعامل به بهراماً، فإنه كان يصادق الباطنيَة ويراعي أصحابهم. وغرضه في ذلك أن يساعدوه على أعدائه، وينجدوه إن دهمه أمرٌ لايطيقه فلم يُغن عنه ذلك من أمر الله شيئاً، وضرب عنقه الملك بوري صاحب دمشق، وأحرقَ بدنَه، وعلقّ رأسه، وانقلبت البلدُ بالسرور، وحمدوا الله. وثارت الأحداث والشطار في الحال بالسيوف والخناجر يقتلون من رأوا من الباطنية وأعوانهم ومن يتهم بمدحهم ويتبعونهم حتى أفنوهم، وامتلأت الطرق والأسواق بجيفهم، وكان يوماً مشهوداً أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأخذ جماعة أعيان، منهم شاذي الخادم تربية أبي طاهر الصائغ الباطني الحلبي، وكان هذا الخادم رأس البلاء، فعوقب عقوبة شديدة شفت القلوب، ثم صلب هو وجماعته قبلي السور، وقتل بدمشق ممن كان يرمى بمذهب الباطنية ستة آلاف نفس، ولما سمع اسماعيل الداعي وأعوانه ببانياس بما جرى انخذلوا وذلوا،

وسلّمَ اسماعيلُ اللعين بانياس إلى الفرنج، وذهب هو وأعوانه إلى ا لبلاد الافرنجية في الذلة والقلة، ثم مرض إسماعيل بالإسهال وهلك، فلارحمه الرحمن.

ولما عرف الفرنج بواقعة الباطنية وانتقلت إليهم بانياس قويت نفوسهم وطمعوا في دمشق وحشدوا وتألبوا، وتجمعوا من الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس والسواحل، فكانوا نحواً من ستين ألف مابين فارس وراجل، فتأهب تاج الملوك بوري، وطلب التركمان وأنفق الخزائن، وأقبل الملاعينُ قاصدين دمشق، فنزلوا على جسر الخشب والميدان، وبرز عسكرُ دمشق، وجاء التركمان والعرب وعليهم الأمير مُرى بن ربيعة، وتفرقوا كراديسَ في عدة جهات، فلم يبرز أحد من الفرنج، بل لزموا خيامهم، فأقام الناس أياماً هكذا، ثم وقع المصاف، فحمل المسلمون وثبت الفرنج، فلم يزل عسكرُ الإسلام يكر عليهم ويقتل منهم إلى أن فشلوا وخذلوا ثم ولّوا مدبرين، وهرب جيش الفرنج بالليل، وابتهج الخلق بهذا الفتح المبين، فلله الحمد والشكر.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

فيها كانت زلزلة عظيمة هدمت بيوتاً كثيرة ببغداد، ووقع بأرض الموصل مطر عظيم، وأمطرت عليهم ناراً فأحرقت دوراً كثيرة وخلقاً، وتهاربَ الناس.

وفيها وجد ببغداد عقارب طيارة لها شوكتان، وخاف الناسُ خوفاً شديداً.

وفيها ملك عماد الدين زنكي بلاداً كثيرة من الجزيرة وبلاد الفرنج، وفتح حصن الأثارب عنوةً، وجعله دكا، وكان على أهل حلب من هذا الحصن ضرر عظيم لقربه منهم، فإن الأثارب على ثلاثة فراسخ من

غربي حلب، وجرت له حروب طويلة وخطوب جليلة ونصر عليهم في تلك المواقف كلها، وقتلَ خَلْقاً، ومنها ذلت الفرنج وعلموا عجزهم عن زنكي.

وفيها قتل الباطنيةُ الخليفة الآمر بن المستعلي صاحب مصر ولـه من العمر أربع وثلاثون سنة، ومدة خلافته تسع وعشرون سنة وخمسة أشهر ونصف، وهو العاشر من الفاطميين من ولد عبيد الله المهدي، ولما قتل تغلبَ على الديار المصرية غلام من غلمانه أرمني استحوذ على الأمور ثلاثة أيام حتى حضر أبو عليّ أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي، فأقام الخليفةَ الحافظَ عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم ابن الإمام المستنصر وله من العمر ثمان وخمسون سنة، ولما أقامه استحوذ على الأمور دونه، وحصره في مجلسه لايدع أحداً يدخل عليه إلا إذا أراد، ونقل الأموال من القصر إلى داره، ولم يبق للحافظ سوى الاسم فقط.

سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها وثب اثنان من الباطنية على تاج الملوك صاحب دمشق فجرحاه فأدركهما جماعته فهبروهما بالسيوف، وسبب ذلك أن الباطنية لما جرى عليهم ماذكرناه في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة تجرأوا على تاج الملوك، وندبوا لقتله هذين الرجلين، فتوصلا حتى خدما في ركابه، ثم وثبا عليه فجرحاه، فتعلّل مدةً ثم مات رحمه الله.

وفيها قتل أبو علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي وزير الحافظ، فنقلَ الحافظُ الأموال التي كان أخذها إلى داره واستوزر بعده أبا الفتح يانس الحافظي ولقبه أمير الجيوش، ثم احتال له فقتله، واستوزر ولده الحسنَ بعده.

سنة ست وعشرين وخمسمائة

فيها تملك دمشقَ شمسُ الملوك إسماعيل بعد أبيه تاج الملوك بوري ابن طغتكين، فقام بأعباء الأمر، وخافته الفرنج، وأبطل بعض المظالم، وفرح الناسُ بشهامته، وفرط شجاعته، واحتملوا ظلمه. وأخذ شمسُ الملوك مدينة حماة من زنكي.

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

فيها قتل شمسُ الملوك أخاه سونج الذي كان أسره زنكي، فحزن الناسُ عليه.

وفيها أخذ شمسُ الملوك بانياسَ من الفرنج بالسيف وقلعتها بالأمان، فلما نزلوا أسروا كلهم، ثم قدم دمشق مؤيداً منصوراً، والأسرى بين يديه ورؤوس القتلى. ورأى الناسُ ماأقرَّ أعينَهم، فلله الحمدُ والمِنة، وكان يوماً مشهوداً.

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

وفيها أخذ شمسُ الملوك الشقيف وبيروت، ونهب بلاد الفرنج.

وفيها افتتح الأتابك زنكي بن اقسنقر قلاعاً كثيرة، وقتلَ خلقاً من الفرنج، وفتح المعرة—وكانت بيد الفرنج سبعاً وثلاثين سنة— وردَّ على أهلها أملاكهم، فكثر له الدعاء.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

فيها كانت وفاةُ الخليفة المسترشد بالله وولاية الراشد، وسببُ ذلك أنه كان بين السلطان مسعود وبين الخليفة المسترشد واقع كبير، اقتضى

الحال أن الخليفة أراد قطعَ الخطبة له ببغداد، فاتفق موتُ أخيه طغرل ابن محمد بن ملكشاه، فسار مسعودٌ إلى البلاد فملكها، وقوي جأشه ثم شرع بجمع العساكر ليأخذ بغداد من يد الخليفة، فلما علم الخليفة بذلك انزعج واستعدّ لذلك ثم خرج من بغداد في جحافل كثيرة فيهم القضاة ورؤوس الدولة من جميع الأصناف، ومشوا بين يديه أولَ منزلة حتى وصل إلى السرادق، ثم سار إلى أن التقى الجيشان في يوم الاثنين عاشر رمضان واقتتلوا قتالاً كثيراً، ولم يقتل من الصفين سوى خمسة أنفس، ثم حمل الخليفة على جيش الملك مسعود فهزمهم، ثم تراجعوا فحملوا على جيش الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا الخليفة، وأخذوا مامعه، وكان معه خزائن عظيمة، وكانت صناديق الذهب على سبعين بغلاً أربعة آلاف ألف دينار، وكان الثقل على خمسة آلاف جمل، وخزانة السبق أربعمائة بغل.

ووصل الخبر إلى بغداد، فنفر أهل بغداد في يوم عيد الفطر، ووثبوا على الخطيب، وكسروا المنبر والشباك، ومنعوه من الخطبة، ومشوا في الأسواق على رؤوسهم التراب يبكون ويصيحون، وخرج النساء حاسرات يندبن الخليفة في الطرق وتحت التاج.

قال ابن الجوزي: وزلزلت بغداد مراراً كثيرة ودامت كل يوم خمس أو ست مرات إلى ليلة الثلاثاء، فلم تزل الأرض تميد من نصف الليل إلى الفجر والناس يستغيثون، وتفاقم الأمر، واستسلم الناس.

ثم أرسل سنجر إلى ابن أخيه مسعود يقول له: ساعة وقوف غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين، ويقبّل الأرض بين يديه، ويسأله العفو والصفح ويتنصل غاية التنصل، فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية مالاطاقة لنا بسماع مثلها، فضلاً عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل، ودوام ذلك عشرين يوماً،

وتشويش العساكر، وانقلاب البلدان، ولقد خِفتُ على نفسي من جانب الله وظهور آياته، وامتناع الناس من الصلوات في الجوامع، ومنع الخطباء مالا طاقة لي بحمله، فبالله تتلافى أمرك معه، وتعيده إلى مقر عزه، وتسلم إليه دُبيساً ليحكم فيه، وتحمل الغاشيةَ بين يديه أنتَ وجميع الأمراء كما جرت عادتنا وعادة آبائنا، فلما قرأ مسعود هذه المكاتبة امتثل ماأمره به عمه، وضرب للخليفة سرادقاً عظيماً، ونصب فيه قبةً عظيمة تحتها سرير هائل، وألبس الخليفةَ السوادَ على عادته، ثم جاء مسعود فدخل عليه، وقبل الأرض بين يديه، ووقف يسأل العفو، فقال: قد عفا الله عن ذنبك فأشكر وطب نفسا. ثم عامله مسعود بما أمره به عمُّه، ثم أحضر دبيساً مكتوفاً بين أربعةِ أمراء ومع كل واحد سيف مسلول وكفن منشور، وألقي بين يدي السرير، وقال مسعود: ياأمير المؤمنين، هذا السبب الموجب لما تم، فإذا زال السبب زال الخلاف، ومهما تأمر يُفعل به، وهو يبكي ويتضرع ويقول: العفو عند القدرة، وأنا أقل وأذل، فعفا عنه و(قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر لكم) (٢٢) فجعل يقبل يدَ أمير المؤمنين ويمرّها على وجهه وقال: بقرابتك من رسول الله ﷺ إلا ماعفوتَ عني وتتركني أعيش في الدنيا، فإن الخوف منك قد برح بي.

وطار هذا الخبر في الآفاق، وفرح الناس بذلك واطمأنت قلوبهم. فلما كان مستهل شهر ذي القعدة، جاءت الرسل من جهة الملك سنجر إلى ابن أخيه يحثه على الإحسان إلى الخليفة، وأن يبادر بسرعة ردّه إلى وطنه. وأرسل مع ا لرسل جيشاً ليكونوا في خدمة الخليفة إلى بغداد. فصحب الجيش معه سبعة عشر من الباطنية، ويقال ان مسعوداً لم يعلم بهم والله أعلم. فركب السلطان والعسكر لتلقي الرسل، فهجمت الباطنية على الخليفة في خيمته وقتلوه بها، وقطعوه قطعاً، ولم يلحق الناس منه إلا الرسوم. وقتلوا معه جماعةً أحاطوا بالسرادق، فخرج الباطنية وقد فرغوا من شغلهم فقتلوا، ووقع النحيب والبكاء، وذلك على باب مراغة، ودفن بها، كذا قاله الذهبي، وقال ابن كثير: وحمل إلى بغداد وصلي عليه فيها.

ولما وصل خبر قتله إلى بغداد وقع النحيب والبكاء، وخرج الناس حفاة ممزقين الثياب، والنساء منشرات الشعور يلطمن ويقلن فيه المراثي على عادتهن لأن المسترشد كان محبباً فيهم بمرّه، لما فيه من الشجاعة والعدل والرفق بهم، وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وتمكن في خلافته تمكناً عظيماً لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المستنصر بالله إلى خلافته إلا أن يكن المعتضد والمكتفي، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكر وقاد الجيوش وباشر الحروب.

قال ابن كثير: وهو آخر خليفة رؤي خطيباً، وعمل العزاء في الديوان ثلاثة أيام.

ثم جلس ابنه الراشد في الشباك في الدار المثمنة المقتدرية، وبايعه الأمراء والأعيان، وخطب له ببغداد، وظهر للناس، وكان أبيض مشرباً بحمرة، جسيماً مستحسناً، وكان يومئذ كبيراً له أولاد، ونادى بإقامة العدل وردَّ بعض المظالم، وظهر في أيامه الرفض كثيراً، ثم إنّ السلطان مسعوداً جهز إلى دُبيس من قتله، وأراد بذلك أن ينسب قتلة[المسترشد] إلى دُبيس وأنه أخذ بثأر الخليفة منه. وعلى كل حال أراح الله الارض ومن عليها من ذلك المارد الرافضي.

وفيها اختلت أحوال الشام لسوء سيرة شمس الملوك، فإنه حنق على الناس، وصادر الاعيان، وكاتب أهل دمشق الاتابك عماد الدين زنكي وسألوه إدراكهم، وأطمعوه في دمشق، ثم اجتمع جماعة من عسكره وغيرهم وتشاوروا فيما دهمهم من ظلم صاحبهم وعسفه وهتكه لحرمهم، وأخذه أموالهم وأزواجهم، وقال بعضهم: هذا نوع من ا لجنون والسَوْداء لادواء له إلا بالموت، وأنهوا الحال وخوّفته، فلم يلتفت إليها وسبّها وكاد يبادر إليها، فلما خرج من عندها أشار عليها الخواص بالتمكين من قتله، لادواء له إلا بالموت، وأنهوا الحال الى والدته صفوة الملوك زمرد

خاتـون، فاستدعت ولـدها شمس الملـوك، ولامته وخوفتـه ، فلم يلتفت إليها وسبها وكاد يبادر إليها، فلما خـرج من عندها أشار عليها الخواص بـالتمكيـن مـن قتـلـه وقيل لها: إنّه قد عزم على قتلك، فمكنت مـن ذلك، فاجتمع عليه طائفة من الغلمان فقتلـوه في بعض الـدهاليز، وابتهـج الناس بمصرعـه، وشكروا الله تعالى على الـراحة منه، وأجلس في الملـك أخوه شهاب الديـن محمود ابن تاج الملوك بـوري، فخرج إليه خلق من العساكـر والأحداث وصدّوه، ولم يمكنوه من مقاربة البلد، ثم حصل الصلح معه ورجع.

سنة ثلاثين وخمسمائة

فيها وقـع بين الخليفة الراشد وبين السلطـان مسعود بسبب أنـه أرسل إلى الخليفـة يطلب منـه مـاكان كتـب له والـده خطـه به حين أسره وهـو أربعمائة ألف دينـار. فامتنـع الراشـد من ذلـك، وأرسل إليـه يقول: أمـا الأمـوال المضمونـة فانها كـانـت لاعادة الخليفـة إلى داره ولم تحصل وأنـا مطالـب بالثأر، وأما مـا ل البيعة فحتى تعـاد إليّ أملاكي واقطاعـي، وأما الرعية فلا سبيل لك عليهم، ومـاعندي إلا السيف، ثم استنهض الخليفة الأمراء، وأرسـل إلى عماد الديـن زنكي فجاء إليـه والتفت عليـه خلائق، وجاء في غضون ذلك السلطان داود بن محمـود [بن محمد] بن ملك شاه، فخطب لـه الخليفة ببغـداد وخلع عليه، وبـايعه، فتـأكدت الـوحشة بين الخليفة والسلطان جـدا، وبرز الخليفة إلى ظاهر بغـداد، ومشى الناس بين يديـه كما كانوا يعاملـون به أباه، وخـرج ا لسلطان داود من جانـب آخر، فلما بلغهم كثـرة الجيوش مـع السلطان مسعود حسَّـن عماد الديـن زنكي للخليفة أن يذهب معه إلى بلاد الموصل.

واتفق دخول السطان مسعود إلى بغـداد في غيبتهم، فاستحوذ على دار الخلافة بما فيها حتى استخلص من نسـاء الخليفة وحَظايـاه الحليّ والمصاغ والثياب التـي للزينـة وغير ذلك، وجمع القضـاة والفقهاء وأبـرز لهم خط

الراشد أنه متى خرج من بغداد لقتال السلطان مسعود فقد خلع نفسه من الخلافة، فأفتى من أفتى من الفقهاء بخلعه فخلع، وكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً، واستُدعي محمد بن المستظهر بالله وبويع له بالخلافة عوضاً عن ابن اخيه الراشد وله من العمر أربعون سنة، ولقب بالمقتفي، ويقال إنه رأى النبيﷺ في المنام وهويقول له: سيصل هذا الامر إليك فاقتف بي، فصار الأمر إليه بعد ستة أيام، فلقب بذلك لذلك، ويقال إنهم بايعوا المقتفي على ألا يكون عنده خيل ولا ألة سفر، وأخذ مسعود جميع مافي دار الخلافة من دواب وأثاث وذهب وستور، ولم يترك بدار الخلافة سوى أربعة أفراس وثمانية بغال برسم الماء. وسار الراشد صحبة زنكي ودخل الموصل.

فائدة: ولي المقتفي والمسترشد الخلافة وكانا أخوين، كذلك السفاح والمنصور وكانا أخوين، وكذلك الهادي والرشيد ابنا المهدي وكانا أخوين، وكذلك الواثق والمتوكل ابنا المعتصم وكانا أخوين، وأما الثلاثة إخوة: فالأمين والمأمون والمعتصم بنو الرشيد، والمنتصر والمعتز والمعتمد بنو المتوكل، والمكتفي والمقتدر والقاهر بنو المعتضد، والراضي والمتقي والمطيع بنو المقتدر، وأما أربعة إخوة فلم يكن إلاّ في بني أمية، وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان.

وفيها تحركت الأسعار بدمشق والشام، فبيعت الغرارة بأربعمائة درهم، وجاء جراد عظيم فزاد الناس خوفاً.

وفيها طلع على دمشق وأعمالها والبقاع وبعلبك سحاب مظلم أسود سد الأفق، ثم أحمر حتى كأنه النار، وجاءت من بعده ريح شديدة، ووقع برد كبير ومطر مفرط في الكثرة، وفاضت ا لسيول وامتدت المدود واختلطت أنهار دمشق بعضها ببعض، وأخرب بردى مايجاوره.

وفيها اجتمعت عساكر حلب مع ا لأمير سوار الدين نائب حلب، وكبسوا اللاذقية بغتة وقتلوا وأسروا وغنموا.

قال ابن الأثير: كانت الأسرى سبعة آلاف نفس بالصغار والكبار، ومائة ألف من الدواب والمواشي، وخربوا اللاذقية، وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً.

سنة احدى وثلاثين وخمسمائة

فيها خرج الراشد من الموصل متوجهاً نحو مراغة، وسببه مابلغه من انتظام الحال بين الأتابك زنكي وبين الخليفة المقتفي والسلطان مسعود على ضياع قررت له ببغداد، على أن يخطب له في البلاد التي تحت يده من الموصل والشام، وعلى أن لايكلّف الحضور عند السلطان ولايزور ولايزار.

وشرط هو أن يسلم الراشد اليهم ولايخطب له ويخلعه، فلما تم ذلك خرج الراشد من الموصل ليلاً، وتبعه أصحابه من الغد، وعلم بهم زنكي فلم يتعرض لهم، فلما تعدّى الموصلَ تبعه داود السلجوقي، وساروا إلى همذان، فلما علم بهم السلطان مسعود خرج من بغداد إلى همذان لدفع الراشد وابن أخيه داود، وتقاربت العساكر واصطفت الجيوش، فحمل مسعود على القلب وفيه داود فكسره، ثم حملت ميسرته وكسرت الميمنة، فاستنهض الراشد الأتراك ووعدهم ونخاهم، فردّوا إلى عسكر مسعود، وكانوا قد نزلوا عن خيولهم واستراحوا، وبعضهم قد نزع عن نفسه، وبعضهم قد شرب وسكر، فحملوا عليهم فانهزموا جميعهم. فلما رأى مسعود انهزام أصحابه وتحكم السيوف فيمن بقي منهم، ولى منهزماً ودخل أصفهان مكسوراً، ولما وصلت الأخبار إلى بغداد بكسرة الملك مسعود، اضطرب أمر الخليفة المقتفي، وسار الراشد إلى أصفهان ومعه داود والعساكر، فعاثوا في البلاد وأخربوا القرى وظلموا الناس وأخربوا

كثيرا من قرى الملاحدة، فدست إليه الملاحدة من قتله على باب أصفهان في ليلة السابع والعشرين من رمضان، وخلص الأمر للمقتفي، وتقررت السلطنة لسنجر ثم لمسعود.

وفيها كثر موت الفجأة بأصبهان، فمات كثير من الناس، وأغلقت دور كثيرة.

وفيها تزوج الخليفة المقتفي فاطمة بنت السلطان محمد بن ملكشاه أخت السلطان مسعود على صداق مائة ألف دينار، وحضر السلطان مسعود العقد، ونثر الناس أنواع النثار.

وفيها صام أهل بغداد رمضان ثلاثين يوماً، ولم يروا الهلال ليلة إحدى وثلاثين مع كون السماء مصحية. قال ابن الجوزي: وهذا شيء لايقع مثله.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

فيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بقلعة تكريت.

وفيها كانت زلزلة عظيمة في بلاد الشام والجزيرة والعراق، فانهدم شيء كثير، ومات خلق كثير تحت ا لردم.

وفيها كان بخراسان غلاء كبير حتى أُكلت الكلاب.

وفيها أ خذ عمادُ الدين زنكي مدينة حمص، وتزوج بالست زمرّد خاتون أم شمس الملوك إسماعيل وهي أخت الملك دقاق لأمه، وهي التي تنسب إليها المدرسة الخاتونية البرانية بدمشق بأعلى الشرف القبلي.

وفيها كسى الكعبةَ رجلٌ من التجار يقال له راسب ا لفارسي بثمانية عشر ألف دينار، وذلك لانه لم يأتها كسوة في هذا العام لأجل اختلاف الملوك.

وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق كثير لايحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، وقصد الشام فخافه الناس خوفاً عظيماً، وقصد مدينة بزاعة وحصرها—وهي على مرحلة من حلب— وفتحها عنوة. ثم سار عنها إلى شيزر، وهي حصن منيع على مرحلة من حماة فحصرها، ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً، وأرسل صاحبها إلى زنكي يستنجده، فحضر ونزل على حماة، وكان كل يوم يركب في عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل سرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب. ثم يعود آخر النهار، وكان الروم قد نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل اليهم زنكي يقول لهم: إنكم تحصنتم بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم بنا أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرنا بكم أرحنا المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما قال هذا ترهيباً لهم، وكان زنكي يراسل فرنج الشام ويحذرهم ملك الروم، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم، وكان يراسل ملكَ الروم ويوهمه أن الفرنج معه، فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المناجيق وآلات الحصار بحالها، فسار زنكي خلفهم فظفر بطائفة منهم من ساقة العسكر، فغنم منهم، وقتل وأسر وأخذ جميع ماخلفوه، ورفعه إلى قلعة حلب، وكفى الله المؤمنين القتال.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

فيها كانت زلزلة عظيمة بمدينة جنزة مات بسببها مئتا ألف وثلاثون ألفاً وخسف بها، وصار مكان البلد ماء أسود عشرة فراسخ في عشرة فراسخ، وزلزلت حلب في ليلة واحدة ثمانين مرة، وخرج أهلها إلى الصحراء.

قال ابـن الأثير: ولم تزل الزلازل تتعـاهدهم بـالشام من رابـع صفر إلى تاسع عشره، وكان معها صوت وهدة شديدة.

وفيها قتل صاحب دمشق شهاب الديـن محمود بن تاج الدين بن تاج الملوك بوري، قتله ثلاثة من خواصـه ليلاً وهربوا من القلعة، فأدرك اثنان وصلبا، وأفلـت الثالـث. وتملك بعـده أخوه جمال الـدين محمـد بن تـاج الملوك، وكان ببعلبك قبـل ذلك، فجاء الأتابك زنكي وأخـذ بعلبك بعد أن نصب عليها أربعة عشر منجنيقاً تـرمي ليلاً ونهاراً، فأشرف أهلها على الهلاك فسلموا البلد، وعصـى بالقلعة جماعة مـن الأتراك ونزلوا بـالأمان، فغدر بهم وصلبهم، فمقته النـاس، ونفر منه أهل دمشق، وقالـوا: لوملك دمشقَ فعـل بنا مثلَ مـافعل بهؤلاء، ولما ملك ولاَّهـا لنجم الديـن أيوب والد صلاح الدين وكتب له ثلثها، فاستقر فيها إلى أيام نور الدين محمود.

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

فيهـا دخـل المقتفـي على الخاتـون فاطمـة أخـت السلطـان مسعـود، وأغلقت بغـداد، وكان وقتاً مشهـوداً، وتزوج السلطـان بنت أمير ا لمؤمنين المقتفي.

وفيها نقصت المياه مـن سائر الدنيا، وفيها توفي رجل صـالح من أهل باب ا لأزج، فنودي للصـلاة عليه بمدرسة الشيخ عبـد القادر، فلما أريد غسلهُ عطس وعاش.

وفيها ولد تقيُّ الدين عُمر بن شاهِنشاه بن أيوب بن شادي.

وفيهـا قدم الأتـابك زنكـي من بعلبـك، فنـزل البقاعَ طـالباً دمشـق، فوردت اليه هديةُ صاحب دمشـق، وطلب منه العود ويعطيه خمسين ألف دينار ويعطيـه حمص، فأشار نجم الـدين على زنكي بقبول ذلـك، وقال:

هـذا مال كثير قـد حصـل بلاتعـب، وبلد كبير بـلا عنـاء، ودمشق بلـد عظيم، وأهـل دمشق قد ألـف أهلها هـذا البيت، وتمرَّنوا على سياستهم، وقد بَلغَتْهم الأحـوال التي جرت ببعلبك، فـامتنع عمادُ الدين زنكـي من قبول ماأشار به، ففاته ذلك، ولم يظفر بعوضه، فإنه جاء ونزل على داريا، وأرسل إلى جمال الديـن محمد بن بوري يطلـب منه دمشق ويعوضـه عنها أيّ بلد شاء، فلم يجبه، فالتقـى العسكران، وانهزم الدمشقيون، وقتل كثير منهـم. ثـم تقدم زنكـي إلى المصلّى، فـالتقـاه جمع كثير من جنـد دمشـق وأحـداثها ورجـال الغوطـة، فقاتلـوه فانهزمـوا، وأشرف البلدُ على الأخـذ، لكن عاد زنكي فـأمسك عدة أيام عن القتال، وتابع الـرسل إلى صاحب دمشق بتسليمهـا، فلم يجبه، فعـاد إلى القتال والـزحف، فمرض صـاحب دمشق ومـات في ثامـن شعبان وهو مثـل الوقت الـذي مات فيـه أخوه، وكانـت مدة ولايته سنة واحـدة، وكان حسن السيرة قليل الظلـم، فحزن الناس عليه وولي بعده ابنـه مجير الدين أبق، ودبر دولته معين الـدين أنر. فلما ألحَّ عليهـم زنكي بالقتـال راسل أنر الفرنـجَ يستنجدهم، وخـوفهم من زنكـي إن تملّك دمشـق، فتجمعت الفرنـج، وعلم زنكـي، فسار إلى حوران لملاقاتهم، فهـابوه ولم يجيئوا، فعاد إلى حصار دمشـق، ونزل بعذرا، وأحـرق قرى المرج وتـرحل، فجـاءت الفرنـج واجتمعـوا بأنـر، وكان قـد شارطهم إن رحّلوا زنكـي يعطيهم بانياس، وكانت لـزنكي، فسار أنر في عسكر دمشـق إلى بانياس وأخـذها وسلمهـا إلى الفرنج. فغضـب زنكي، وعاد إلى دمشـق فعاث بحـوران وأفسد، وجـاء إلى دمشق فـاقتتلوا معـه، وقتل جماعة، ثم رحل عنها ومع أصحابه شيء كثير من النهب.

وسـار إلى حصـن بارين —وكـان بيـد الفـرنج— فحـاصره حصـاراً شديداً، فراسلوه في طلب الأمان، فأجابهم وتسلم الحصن.

قـال ابـن ا لأثير: وكـان هـذا الحصـن مـن أضرّ بـلاد الفـرنـج على المسلمين، فـإن أهله كـانـوا قد أخـربوا مـابين حماة وحلـب من البلـدان وانقطعت السبل، فأزال الله بزنكي هذا الضرر العظيم.

وفي مدة مقامه في بارين سيّر جنده إلى المعرّة وكفر طاب وتلك الولاية جميعها واستولى عليها، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

فيها وصلت البردة والقضيب إلى بغداد، وكانا قد أخذا مع المسترشد سنة تسع وعشرين، فحفظهما السلطان سنجر عنده حتى ردّهما في هذه السنة، وفيها أصاب الحجّاجَ عطش شديد، فهلك منهم خلق كثير، ومنهم من تأخر وصوله حتى فاتته الوقفة.

وفيها ظهر ببغداد رجل قدم إليها وأظهر الزهد والنسك، وقصده الناس من كل جانب، فمات ولد لإنسان فدفنه قريباً من قبر السبتي، فذهب ذلك المتزهد فنبشه ودفنه في موضع آخر، ثم قال للناس:أعلموا أنني رأيت عمر بن الخطاب في المنام ومعه علي رضي الله تعالى عنهما وقالا: في هذا الموضع صبيّ من أولاد عليّ بن أبي طالب، ودلّهم على المكان، فحفروه، وإذا صبيّ أمرد، فمن الذي وصل إلى قطعة من كفنه! وانقلبت بغداد، وخرج أرباب الدولة وأخذوا ذلك التراب للبركة، فازدحم الخلق، وبقوا يقبلون يد المتزهد وهو يبكي ويتخشّع، وبقي الناس على هذا أياماً والميّت مكشوف يراه الناس ويتمسّحون به ثم أنتن، وجاء الأذكياء وتفقدوا الكفن فإذا هو جديد، فقالوا: كيف يمكن أن يكون هذا من أربعمائة سنة! ونقبوا عن ذلك حتى جاء أبو الصبيّ فعرفه، وقال: هذا والله ولدي دفنته عند قبر السبتي، فمضوا معه فرأوا أن القبر قد نبش، فكشفوه فإذا ليس فيه ميت، وسمع المتزهد فهرب، ثم وقعوا به وقرّروه فأقرّ، فأركب حماراً وصفع. قلت: كذا حكاه الذهبي والله أعلم بصحته . ويلزم من صحته نسبة التغفل الى أهل بغداد في ذلك الوقت، اذ

على تقدير صحة قول ذلك المتزهد عندهم كيف اقتضى عقلهم أن يحفروا قبر ولد من آل عليّ رضي الله تعالى عنه، ويقطّعون كفنه ويكشفونه وينتهكون حرمته! بل لو قيل لهم إنه قبر أبي لهب ماكان يليق أن يفعل به ذلك، بل كان اللائق إذاصدّقوا قوله أن يُعظَّم ذلك الضريح ويزار، وعلى تقدير وقوع ذلك من جهلة الناس، كيف لم ينكر عليهم العلماء والحكّام مع مقامه تلك الأيام! هذا من الأمور المستبعدة.

وفيها ملكت الإسماعيلية حصن مصياف، كان واليه نائباً لصاحب شيزر، فاحتالوا عليه، ومكروا به حتى صعدوا إليه، فقتلوه وملكوا الحصن، وبقي في أيديهم إلى دولة الملك الظاهر بيبرس.

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

فيها كانت وقعة عظيمة بين السلطان سنجر وبين ملك الخطا، وسبب ذلك—كما حكاه الكتبي عن تاج الدين ابن حمويه— أن طائفة من الترك تعرف بقرلق كانوا بما وراء النهر بنواحي سمرقند ترعى بمروجها وتتنقل في مراعيها، ولهم أموال ودواب، لايعرفون عدد أغنامهم، و أهل تلك الناحية ينتفعون بمعاملتهم وجلبهم، ولايتضررون بسببهم، وهم يعفّون عن أموال غيرهم، ويكفّون دوابهم عن الزروع. فاتفق أن الامراء السنجرية أغروا سنجر وألحّوا عليه بأن يبعث الجيوش اليهم يغزونهم ويكسب أموالهم، فسيّر اليهم جيشاً فغزاهم وأوقع بهم، وغنم أموالَهم، وسبى ذراريهم، وقتل رجالهم، فانحازوا إلى جهة، وبعثوا جماعة من مشايخهم إلى السلطان سنجر يسألونه الكف عن أذيتهم وتركهم على ماهم عليه، وقالوا: نحن قوم في الصحارى والخراب وليس لنا مضرة على أحد هنا ولانخيف السبيل، ولانطرق القرى، ولانؤذي الزروع، ومع هذا فنحن نبذل على خراج دوابنا في كل سنة للسلطان خمسة آلاف فرس وثلاثين ألف رأس غنم، فلم يلتفت إليهم ولاقبل منهم مابذلوه، فلما

عادت شيوخهم إليهم بذلك، قصدوا ملك الخطا الملقب بكوخان مستصرخين ومستعدين، وأطمعوه في البلاد، وهوّنوا عليه بلوغ المراد، فجمع فأوعى، وسار في سبعمائة ألف مقاتل، واجتهد سنجر كل الاجتهاد، فجمع سبعين ألفاً، وكان اللقاء بصحارى سمرقند على ست مراحل منها، فانكسر سنجر، وقتل جمع كثير من عسكره، وأسرت زوجته وأولاده وخواصه، ونجا سنجر بنفسه، وتقدم الخطا إلى سمرقند وبخارى واستولوا عليهما، وأمنوا من فيهما، واستحوذ ملكهم على دار الإمارة، ورتب نائباً في كل بلد، وأقر الناس على معايشهم، وعاد بالغنائم إلى بلاده.

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

فيها سار عماد الدين زنكي إلى بلد ا لهكاريةوكانت بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، فملك تلك البلاد وبنى هناك قلعةً عظيمة وسماها القلعةَ العمادية، وفيها خُطب للأتابك زنكي بآمد، وفيها أخذ مدينة عانة والحديثة.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

فيها عزم السلطان مسعود على قصد الموصل والشام لوحشةوقعت بينه وبين عماد الدين زنكي، فترددت الرسل بينهما حتى استقر الحا ل على مائة ألف دينار يحملها زنكي للسلطان، دفع إليه منها عشرين ألف دينار، ثم إن الأمور تقلبت، وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان، فاحتاج إلى مداراة زنكي فأطلق له الباقي من المال استمالة له.

وفيها ملك عمادُ الدين زنكي عدةَ بلاد من ديار بكر، وملك مدينة المعدن الذي يعمل منه النحاس من أرمينية، ومدينة حران، وأخذ من أعمال ماردين عدةَ مواضع.

- ١٠٨٥٣ -

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فيها فتح الأتابك زنكي الرها، وكانت مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وكانت الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم القسطنطينية، ثم الرها، وكان على المسلمين من الفرنج بالرها شرّ عظيم، ملكوا من نواحي ماردين إلى العراق عدة حصون كسروج والبيرة، وكانت غارتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر وماردين ونصيبين ورأس عين والرقة. ولما ملكها زنكي استباحها، ونكس صلبانها، وأباد قسوسها ورهبانها، وملأ الناس أيديهم من النهب والسّبي. ثم إنه دخل البلد فراعه وأنف لمثلة من الخراب، فأمر بإعادة ماأخذ من أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلا الشاذ والنادر، فعاد البلدُ عامراً بعد أن كان داثراً. ورتب البلدَ وأصلح شأنه، وسار عنه، فاستولى على ماكان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرى. وكان فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره، وطاب بها نشره، وشهده خلق كثير من الاولياء والصالحين.

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرّها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي، وكان من العلماء العاملين الزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها وله الكرامات الظاهرة، ذكروا عنه أنه غاب في زاويته يوم ذلك، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور قال: حدثنا بعض إخواننا أن الأتابك زنكي فتح مدينة الرها وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا، ثم قال: مايضرك يازنكي مافعلت بعد اليوم[وبقي يردّد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم فكان] يوم الفتح، ثم إن نفرا من الاجناد حضروا عند الشيخ وقالوا: منذ رأيناك على السور تكبّر أيقنا بالفتح وهوينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً.

قال ابن الأثير: وحكى لي بعض العلماء بالاخبار والأنساب—وهو أعلم من رأيت بها— قال: كان ملكُ جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله، ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين. فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرها سيّر الملك في البحر جيشاً إلى افريقية، فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس وهو شبيه النائم، فايقظه الملك وقال له: كان قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيْتَ وكيْتَ، أين كان محمد من نصرهم؟ قال له: كان قد حضر فتح الرها، قال: فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لاتضحكوا فوالله ماقال عن غير علم، واشتد هذا على الملك، فلم يمض إلا قليل حتى أتاهم الخبرُ بفتحها.

قال: وحكى لي أيضا غير واحد ممن أثق بهم أن رجلاً من الصالحين قال: رأيتُ زنكي بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت: مافعل الله بك؟ قال: غفر لي، فقلت: بماذا؟ قال بفتح الرها.

سنة أربعين وخمسمائة

فيها استولت الفرنج بالأندلس على ساحل البحر الغربي الذي كان بيد المسلمين، وهو مدينة شلب وأشبونة وشنترين وماوالاها.

سنة احدى وأربعين وخمسمائة

فيها احترق القصر الذي بناه الخليفةُ المسترشد وكان في نهاية الحسن. وكان المقتفي قد انتقل إليه بجواريه وحظاياه ليقيم به ثلاثة أيام، فما هو إلا أن ناموا حتى احترق بسبب أن جارية أخذت في يدها شمعة فعلق

لهبها ببعض الاخشاب، فاحترق القصر، وسلم الله الخليفة وأهله، فأصبح وتصدق بأشياء كثيرة، وأطلق المحابيس.

وفيها جلس ابن العبّادي الواعظ فتكلم والسلطان مسعود حاضر، وكان قد وضع على الناس مكساً في البيع فاحشاً، فقال: ياسلطان العالم، أنت تطلق في بعض الأحيان للمغني إذا طربتَ قريباً مما وضعت على المسلمين من هذا المكس، فهبني مغنياً وقد طربت، فهبني هذا المكس شكراً لنعمة الله تعالى عليك، وأسقِطْه عن الناس، فأشار السلطانُ بيده إني قد فعلت، فضج الناس بالدعاء له ونودي في البلد بإسقاطه، ففرح الناس.

وفيها قتل الأتابك عماد الدين زنكي بن آق سنقر رحمه الله تعالى، قال ابن الأثير: كان يحاصر قلعةَ جعبر، فبينا هو نائم دخلَ عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة، وهربوا إلى القلعة، ولم يشعر أصحابهُ بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة، صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله، فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق.

حدثني والدي عن بعض خواصه، قال: أدركته وهو في السياق، فحين رآني ظنّ أني أريد قتله، فأشار إليّ باصبعه السبابة، فوقفت من هيبته، وقلت له: يامولانا، من فعل بك هذا حتى أقتله؟ فلم يقدر على الكلام، وختم الله بالشهادة أعماله.

ومن أعجب ماحُكي أنه لما اشتدّ حصارُ قلعة جعبر، جاءَ في الليل ابن حسان المنبجي، ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه، فقال له: هذا المولى أ تابك صاحبُ البلاد، وقد نزل عليك بعساكر الدنيا ولامعين لك، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذَ لك منه مكاناً عوض هذا المكان، وان لم تفعل فأي شيء تنتظر؟ فقال له صاحب القلعة: انتظر الذي انتظره أبوك.

وكان بلك بن بهرام صاحب قلعة حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدَّ حصار، ونصب عليه عدة مجانيق، وقال يوماً لحسان وقد أحرقه بحجارة المناجيق: أيّ شيء تنتظر؟ ماتسلم الحصن، فقال له حسان: أنتظر سهماً من سهام الله تعالى. فلما كان من الغد، جاء بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم فوقع في لبّته وخرّ ميتاً، ولم يكن بجسده شيء ظاهر سوى ذلك المكان لأنه لبس الدرع ولم يزره على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك رجع عنه، وفي تلك الليلة قتل أتابك فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغريبة ذكر ذلك يحيى بن أبي طيّ في كتاب السيرة الصلاحية.

وكان زنكي حسن الصورة أسمر مليح العينين طويل القامة، ليس بالطويل البائن، وكانت سيرته من أ حسن سير الملوك، وكان من أ كثرها حزماً وضبطاً للأمور، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف.

قال ابن الأثير: حدّثني والدي قال: قدم الشّهيدُ أتابك زنكي الينا بجزيرة ابن عمر في بعض السنين، وكان من زمن الشتاء، فنزل بالقلعة، وترك العسكر بالخيام، وكان من جملة أمرائه عز الدين أبو بكر الدبيسي—وهو من أكبر أمرائه ومن ذوي الرأي عنده— فدخل الدبيسي البلدَ ونزل بدار انسان يهودي وأخرجه منها،فاستغاث اليهودي إلى زنكي وهو راكب، فسألَ عن حاله فأخبر به وكان الشهيد واقفاً والدبيسي إلى جانبه وليس فوقه أحد، فلما سمع الاتابك ذلك الخبر، نظر إلى الدبيسي نظر مُغضب ولم يكلمه كلمة واحدة، فتأخر القهقرى ودخل البلد، وأخرج خيامه وأمر بنصبها.ولمْ تكن الأرضُ تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل.

قال: فلقد رأيتُ الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته، فلما

رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها وينصبوا ا لخيام، وخرج اليها من ساعته، وناهيك بهذا سياسة وإنصافاً.

قال:وكان ينهى أصحابَه عن اقتناءِ الأملاك ويقول:مهما كانت البلاد لنا فأي حاجةٍ لكم في الأملاك، فإنّ الاقطاعات تغني عنها، وإن خرجتِ البلادُ من أيدينا فالأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعيّة وتعدّوا عليهم وغصبوا أملاكهم.

وفيها لما قتل زنكي سار أسدُ الدين شيركوه من ساعته وقصد خيمةَ نور الدين، وقال له: أنا أعلمُ أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل وعزم على تقديم أخيك سيف الدين غازي وقصده الموصل.وقد رأيت أن أصيّرك إلى حلب وتجعلها كرسيَّ مملكتك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام. ثم أخذه وسار في خدمتِه وسلّمه قلعتَها كما قدمنا.

وفيها سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكره إلى بعلبك وحاصرها وبها نائب زنكي نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، فسلّمها صلحاً له، وأخذ منه مالاً، وملكه قرايا من أعمال دمشق. وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق وأقام بها. ولما بلغ ذلك نورَ الدين، خاف أن يفسد عليه أسد الدين ويميل إلى صاحب دمشق لحصول أخيه نجم الدين عنده. ومال نورُ الدين محمود إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية حتى ولاّه جميع أموره وجميعَ مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

وفيها حاصر عبد المؤمن مراكش، وكان بها اسحق بن علي بن يوسف ابن تاشفين، فاستمر أحدَ عشر شهراً ثم أخذها عنوة، فذكر أنه مات من أهلها أيام الحصار بالجوع نيّف على عشرين ومائة ألف. ولما دخلها عبد المؤمن ضرب عنق اسحق المذكور في عدة من القواد، وقتل في ذلك اليوم نيف على سبعين ألف رجل. كذا نقله الذهبي في تاريخ الاسلام عن اليسع بن حزم في هذه السنة.

وذكر الكتبي في تاريخه في السنة التي بعدها أن عبد المؤمن استولى على مراكش بالسيف، وقتل من بها من المقاتلة، ولم يتعرض للرعية، واحضر اليهود والنصارى، وقال: أنتم تزعمون أن بعد الخمسمائة عام يظهر من يعضد شريعتكم. وقد انقضت المدة، وأنا أخيِّركم بين ثلاث: اما أن تسملوا، أوتلحقوا بدار الحرب وإما أضرب رقابكم. فأسلم منهم طائفة ولحق بدار الحرب أخرى. وأخرب الكنائس والبيع وردّها مساجد، وأبطلت الجزية، وفعل ذلك في جميع ولايته. ثم فرق بيتَ المال وكنسه ورشّه، وصلى فيه، وأمر الناس بالدخول إليه والصلاة فيه كما فعل أمير المؤمنين علّي بن أبي طالب رضي الله عنه،وقصد حسن السيرة ليعلم الناس أنه لايؤثر جمع المال ولايدخر شيئاً، ثم أقام معالم الاسلام والحدود على الوجه الشرعي مع السياسة الكاملة، وقال: من ترك الصلاة ثلاثة أيام فاقتلوه. وشدد في الأمور، ولم يدع منكرا الا أزاله، وكان يصلي بالناس الصلوات الخمس، ويقرأ كل يوم سبعا من القرآن بعد صلاة الصبح، ويلبس الصوف، ويصوم الاثنين والخميس.

وفيها: وردت الأخبار بأن ابن جوسلين جمع الفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة من النصارى المقيمين بها، فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين. فنهض نورُ الدين محمود في عسكره، ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة آلاف فارس، ووقفت الدواب في الطرقات من شدّة السير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه، فهجموا عليهم.ووقع السيف فيهم، وقتل من أرمن الرها والنصارى من قتل، وانهزم ابن جوسلين بنفسه، ومحق السيف كل من ظفر به من نصارى الرها، واستخلص من كان أسر فيه من المسلمين، ونهب من الرها شيءٌ كثير من المال والأثاث والسبي، وفي هذه المرة نهبت وخربت وخلت من أهلها، ولم يبق بها إلاّ القليل.

قال ابن الأثير: ومن عجيب ماجرى أن نورالدين أرسل من غنائمها

إلى الأمراء، وأرسل إلى زين الدين علي جملة من الجواري، فحملن إلى داره،ودخل لينظر اليهنفخرج وقد اغتسل وهو يضحك،فسئل عن ذلك، فقال: لما فتحنا الرها مع زنكي، كان من جملة ماغنمت جارية فمالت نفسي إليها، فعزمت أن أبيتَ معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر بإعادة السبي والغنائم، وكان مهيبا مخوفا فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها، فلما كان الآن أرسل إلي نورُ الدين سهمي من الغنيمة وفيه الجارية، فوطئتها خوفا من العود.

وفي شوال من هذه السنة ترددت الرسل والمراسلات بين نور الدين محمود وبين معين الدين أنر إلى أن استقرت الأحوال بينهما على أجمل صفة، وتزوج نورُ الدين بابنة معين الدين، وجهزت إليه إلى حلب.

وفيها قلّ المطر جداً، وقلت مياهُ الأنهار، وانتشر جرادٌ عظيم، وأصابَ الناسَ داء في حلوقهم، فمات بذلك خلق كثير.

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فيها سار نور الدين محمود ففتح أرتاح وهي غربي حلب، وأخذ ثلاثة حصون صغار للفرنج، فهابته الفرنج وعرفوا أنه كبش نطاح مثل أبيه.

وفيها أظلم الجو ونزل غيثٌ ساكب، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً، وبقيت السماء في عين الناظر كصفرة الوَرْس، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة وكلما ينظر إليه من حيوان وجماد ونبات. ثم جاء في أثر ذلك من الرعد القاصف والبرق الخاطف والهدات المزعجة والرجفات المفزعة ماارتاع لها الناس، ثم سكن بقدرة الله وأصبح على الأرض والأشجار وسائر النبات غبار بين البياض والغبرة.

قلت: وقد شاهدت بالقاهرة في سنة ست وعشرين وثمانمائة مثل

هذا، غير أنه لم ينـزل مطر، ولم يحصل رعد ولابـرق، وإنما حصلت ظلمة، واحمرت السماء، وتغيّر الجو تغيّراً كثيراً، وظهـرت رائحـة مثـل رائحـة الحريق، وحصل للناس من ذلك خـوف، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء، واستمر من بعـد العصر إلى الليل، ثم أصبح على رخـام المدارس والبلاط تراب أصفر ذكر بعض الناس أنه من تراب برقة من بلاد المغرب.

وفيها ولد ببعلبك الملك العادل سيف الدينأبو بكربن أيوب،وقيل في سنة فتح زنكي الرها.

وفيها اشتـد الغلاء بإفـريقية، فهلك أكثـر الناس حتى خلـت المنازل وأقفرت المعاقل.

وفيها رأى رجل في المنام قائلاً يقول: مـن رأى أحمد بن حنبل غفر له؟ قـال ابن الجوزي: فلـم يبق مـن خاص ولاعـام إلا وزاره، قال: وعقـدتُ يومئذ مجلساً فاجتمع فيه ألوف من الناس.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

فيها نـزل الفرنج على دمشـق، خرج ملكُ الألمان في جيـوش لاتحصى، فاجتمـع اليه ملـوك الفرنج التـي بالساحـل، واجتمعوا في بيـت المقدس وصلـوا صلاة الموت وعـادوا إلى عكـا وفرقـوا في العسـاكر سبعمائة ألـف دينـار، ولم يظهـروا أنهم يـريـدون دمشـق، بل بـانيـاس بثغـرهـا، وهـرب المسلمون بين أيديهم، وجمعـوا الغلال والاتبان فأحـرقوها، وكان صـاحب دمشق مجير الـدين أبق بـن محمد بن بـوري بن طغتكين، ومدبـر الامور معين الديـن أنر، والامـر كله لـه ليس لمجير الـدين منـه شيء. ولم يشعر أهل دمشـق إلا وملك الالمان قد خيّـم على المزّة وزحف إلى البلـد، وكان معـه نحـو ستين ألـف راجـل وعشرة آلاف فـارس. وخـرج اليهـم معين الديـن ومجيرُ الديـن في مائة ألف راجـل سوى الفـرسان في يـوم السبت

سادس شهر ربيع الأول وتقاتلوا قتالاً شديداً، واستشهد من المسلمين في هذا اليوم نحو مئتين منهم الفقيه الامام يوسف الفندلاوي شيخ المالكية عند النيرب قريب الربوة، كذلك الزاهد عبد الرحمن الحلحولي قتلا في مكان واحد، وكان معينُ الدين قد رأى الشيخ يوسف وقال له: ياشيخ، أنت معذور ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، فقال: قد بعت واشترى فلا نقيله ولانستقيله، يشير إلى قوله تعالى:(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة) (٢٣) واستظهر الكفار على المسلمين، وشرع الكفار في قطع الأشجار والتحصن بها، وهدّوا القناطر وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناسَ من الارتياع لهول ماشاهدوه والروع بما عاينوه ماضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور، وباكروا الظهور اليهم في غد ذلك اليوم وهو الأحد، وزحفوا اليهم ووقع الطراد بينهم، واستظهر المسلمون عليهم، وأظهروا القتل والجراح فيهم. وأبلى الامير معينُ الدين في حربهم بلاءً حسناً، فظهر من شجاعته مالم يظهر من غيره، وقتل من الفرنج خلائق، واستشهد[من المسلمين] جماعة. ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم إلى أن أقبل الليل وعاد كل واحد منهم إلى مكانه. وبات الجند بازائهم وأهل البلد على أسوارهم.

ثم إن الفرنج تقدموا وخيّموا بالميدان الأخضر، وضايقوا البلدَ حتى نزلوا على أبوابه. وكان أنر قد كاتب سيف الدين غازي ونورَ الدين ابني زنكي، فلما كان في اليوم الخامس وصل سيف الدين غازي في عشرين ألف ونزل بحمص، ووصل نور الدين محمود إلى حماة، وفرح المسلمون بذلك، فأرسل غازي يقول لمعين الدين: قد حضرت بجيش عظيم، ولم أترك ببلادي من يحمل السلاح، فإن أنا جئت ولقيت الفرنج وكانت علينا هزيمة وليست دمشق لي ولالي بها نائب لم يسلم منا أحد، وأخذتها الفرنج وغيرها، فإن أحببتَ أني أقاتِلهم فسلم البلد إلى من أثق به، وأنا

أحلف لك إن كان النصر لنا لاأدخل إلى دمشق، وأرجع إلى بلادي. فمطله معين الدين، وبعَث إلى [الفرنج] الغرباء يقول لهم: إنّ ملك الشرق قد حضر، فإن رحلتم وإلا سلّمت دمشق إليه، وحينئذ تندمون. وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم: بأيّ عقل تساعدون هؤلاء الغرباء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا أخذوا مابأيديكم من البلاد الساحلية، وأنا اذا رأيت الضعف عن حفظ البلد سلّمته إلى ابن زنكي، وأنتم تعلمون أنه إن ملك لايبقى لكم معه مقام بالشام، فأجابوه إلى التخلي عن ملك الألمان، وبذل لهم حصن بانياس. فاجتمعوا بملك الالمان، وخوّفوه من عساكر الشرق، وحسّنوا له الرحيل، وكان زمان الفاكهة، فأكل الفرنج منها فانحلت أجوافهم، ومات منهم خلق كثير، ومرض الباقون.

ولما ضاق بأهل دمشق الحال، أ خرجوا الصدقات والأموال على قدر أحوالهم، واجتمع الناس في الجامع الرجال والنساء والصبيان، ونشروا مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه، وحثوا الرماد على رؤوسهم وبكوا وتضرعوا، فاستجاب الله تعالى. وكان مع ملك الألمان قسيس كبير طويل اللحية يقتدون به يسمى الياس، فأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشق، فركب حماره، وعلق في عنقه صليباً وفي يديه صليبين، وجمع القساوسة بين يديه بالصلبان، وركب الملوك والرجالة بين يديه، ولم يتخلف من الفرنج أحد إلا من يحفظ الخيام وقال لهم القسيّس: قد وعدني المسيح أني أفتح اليوم دمشق، ولايردني أحد، وقصدوا البلد ففتح المسلمون الأبواب واستسلموا للموت، وغاروا للاسلام، وحملوا حملة رجل واحد، وكان يوماً لم ير في الجاهلية ولا في الاسلام مثله، وقصد واحد من أحداث دمشق القسيس لعنه الله وهو في أول القوم فضربه، فأبان رأسه عن بدنه، وقتل حماره، فانهزم الفرنج لعنهم الله وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف، وأحرقوا الصلبان وتبعوهم إلى الخيام، وحال بينهم الليل، فأصبحوا ولم يبق لهم أثر، وبعثوا يطلبون من معين الدين بانياس فقال:

أنا وعدتُكم إن رحلتم، وهذا فعلَ الله تعالى، فقالوا: نحنُ نعود إلى دمشق، ونقيمُ عليها، ولانرحل حتى نأخذَها، وكانوا قد أحرقوا الربوة، وهدّوا الجواسق، وقطعوا الاشجار، ودرسوا ظاهرَ دمشق، فرأى معينُ الدين أن يفديَ دمشق ببانياس، فأعطاهم إياها،وبقيت في أيديهم حتى فتحها نور الدين محمود. وعاد سيف الدين غازي إلى بلاده، واستبشر الناسُ بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم، وأكثروا من الشكر له تعالى عما أولاهم.

وذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر رحمه الله تعالى في تاريخه أنَّ الفقيه الفندلاوي رؤي في المنام، فقيل له: أين أنت؟ قال: في جناتِ عدن على سُرر متقابلين. وقبره الآن يُزار بمقابر الباب الصغير من ناحية حائط المصّلى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله. قاله ابن الأثير.

وفيها وردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين محمود صاحبها كان قد توجه إلى ناحية الأعمال الافرنجية. وقصد فامية وظفر بعدة من الحصون والمعاقل الافرنجية، وبعدة وافرة من الفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه، فنال من عسكره وأثقاله، وانهزم بنفسه وعسكره، وعاد إلى حلب سالماً لم يفقد منه إلا النفر القليل بعد قتل جماعة وافرة من الفرنج.

وذكر ابن أبي طي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نور الدين لتقديم ابن الداية عليه، لم ينصح يومئذ. فمرّ به نورُ الدين، فقال له: ماهذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا، فقال: ياخوند، ايش ننفع نحن، انما ينفعُ مجدُ الدين أبو بكر، هو صاحب الامر—يعني ابن الداية— فاستدرك نورُ الدين ذلك، وطيّب قلب أسد الدين، وألزم مجدَ الدين أن يعرف لاسد الدين حقَّه، وأصلحَ بينهما، قال: وقُتل في هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب أخو الملك الناصر صلاح الدين، وهو والد عز الدين فرخشاه وتقي الدين عمر، والست عذرا

المنسوب إليها المدرسة العذراوية بالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق.

وفيها أبطل نورُ الدين بحلب الآذان بحيّ على خير العمل والتظاهر بسبّ الصحابة، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً، وساعده على ذلك جماعةٌ من أهل السنة والجماعة. وعظم ذلك على الطائفة الإسماعيلية وأهل التشيّع، وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا، ثم سكتوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة والهيبة المحذورة.

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فيها تحركت الفرنج من الساحل ليقصدوا بلادَ حلب، فسار نورُ الدين بعساكره، وجمع كثيرا من التركمان، وكتب إلى معين الدين يستنجده، فبعث اليه وجاءته عساكر مجاهد الدين بزان بن مامين نائبَ صرخد في عساكر دمشق، وجاءته عساكر أخيه سيف الدين، وسار إلى أنطاكية، فخرج إليه البرنس، وكان بينهم وقعة عظيمة، وكسرهم نور الدين، وقتل منهم ألفاً وخمسمائة وأسر مثلها، وقتل البرنس، وكان هذا اللّعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وصاحب بأس مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة، فأراح الله البلاد وكفى العباد منه، وحمل رأسه إلى نور الدين، وعاد إلى حلب بالغنائم العظيمة والأسارى، فبعث بعضها إلى أخيه وإلى الخليفة وإلى دمشق، وذل دين الصليب، وظهر من نور الدين في هذه الوقعة من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ماتعجب منه الناس.

وفيها فتح نورُ الدين محمود حصن فامية، وكان على أهل حماة وحمص منه ضرر عظيم، وكانوا يشنون الغارات منه على البلاد، وكان بينه وبين حماة مرحلة واحدة، وهو حصنٌ منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها.

وفيها جاءت زلـزلة عظيمة، وماجت بغداد نحـو عشر مرات، وتقطع بحلوان جبل من الزلزلة، وهلك عالم من التركمان.

وفيها مات خلقٌ كثير بالبرسام لايتكلم المرضى به حتى يموتوا.

وفيها توفي سيف الدين غازي بـن زنكي صاحب الموصل، وكان عمره أربعا واربعين سنة، وكـان من أحسن الناس صورة، ودفن بـالمدرسة التي أنشأها بـباطن الموصل، وخلّف ولداً ذكـراً أخذه عمه نور الـدين محمود، فربـاه وأحسن إليه، فلـم تَطل أيامـه، ومات شـاباً لم يعقل، وكـان سيف الديـن شجاعاً كريماً ذا عـزم وحزم، وهو أول من حمل على رأسـه سنجق من الأتـابكية أصحـاب الأطراف، فـانه لم يكـن فيهم مـن يفعله لأجـل السلاطين السلجوقية، وهو أول من أمر ألاّ يركب أحدهم إلاّ والسيف في وسطه، فلما أمـر هو بذلك اقتـدى به غيره من أصحاب الأطـراف، ودفن بمدرسـة الأتابكيـة التي بنـاها ووقفهـا على الحنفية والشـافعية بـالموصل، وبنى أيضاً خانقاه.

وتملك بعده الموصل أخـوه قطبُ الدين مودود، وتزوج امـرأة اخيه التي مات ولم يدخل بها—وهي ابنة حسام الدين تمرتاش صـاحب ماردين— فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده.

قـال ابن الأثير: وكـانـت هذه الخاتـون يحل لها ان تضـع خمارها عنـد خمسة عشر ملكـاً من آبـائها وأجـدادها وأخـوتها وبني أزواجهـا وأولادها وأولاد أولادها، ثم ذكرهم ابن الأثير في كتـابه وسمّاهم، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمَة بنـت عبد الملك بن مروان زوج عمر بن عبد العـزيز، فإنه كان لها أن تضـع خمارها عند ثـلاثة عشرخليفة وهـم من معاويـة إلى آخر خلفاء بني أمية، سوى آخرهم وهو مـروان بن محمد فإنه ابن عم ليس لها بمحرم، والباقي محارم لها.

قال صاحب الروضتين وماتم لها ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية فمعاوية جد أمها ويزيد جدها لأمها ،ومعاوية بن يزيد خالُها، ومروان جدُّها لأبيها، وعبدُ الملك أبوها، والوليد بن يزيد ابن اخيها، ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد ابنا أخيها. وهؤلاء كلهم خلفاء، وعدّتهم ثلاثة عشر. لكن عاتكة ليست أمها، بل أمها امرأة مخزومية، واختلّ ماذكره. والصواب في ذلك أن يقال: كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء وهم: مروان بن الحكم ونسله سوى مروان بن محمد،وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن عبد ا لعزيز ومروان بن محمد وبقي اثنا عشر خليفة: معاوية جدّها، ويزيد أبوها ومعاوية بن يزيد أخوها ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها.

قال: وماذكره ابن الأثير من أمر بنت حسام الدين، فستُّ الشام بنتُ أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكا من إخوتها الأربعة: المعظّم، وصلاح الدين، والملك العادل، وسيف الاسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب بن تقيّ الدين عمر وذريته أصحاب حماة، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك. انتهى كلام الروضتين.

قال ابن الأثير: ولما ملك قطبُ الدين الموصلَ والبلادَ الجزرية كان أخوه نور الدين بحلب وهو أكبر من قطب الدين. فكاتبه الأمراء وطلبوه إليهم، فسار نور الدين من حلب في سبعين فارساً من أكابر دولته، منهم أسدُ الدين شيركوه ومجد الدين ابن الداية، فسلم اليهم محمد بن المقدم سنجار. فلما سمع قطب الدين الخبر، جمع عساكره وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ماليس له، ويهددونه

بقصده وإخراجه من البلاد قهراً ان لم يرجع اختياراً، فأعاد[الجواب]: إنني أنا الأكبر، وأنا أحق أن أدبّر أمر أخي منكم، وماجئت حتى كاتبني أمراؤكم يذكرون كرههم لكم، فخفت أن يحملهم بغضُهم لكم على إخراج البلاد من أيدينا، وأما تهددكم إياي بالقتال فأنا ماأقاتلكم إلا بجندكم، ولهذا جئتكم جريدة. وهرب إليه جماعة من أجنادهم، فخافوا أن يلقوه ويخامر عليهم باقي العسكر، فدخل الامراء في الصلح، وقال جمال الدين الوزير: نحن نظهر للسلطان والخليفة اننا تبع نور الدين محمود، ونور الدين يظهر للفرنج أنه تبع لنا، فمتى كاشفناه وحاربناه، فان ظفر بنا طمع فينا السلطان، وان ظفرنا به طمع فيه الفرنج، ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجار[وهذه أنفع من تلك، وتلك أنفع له من هذه، والرأي ان نسلم إليه حمص ونأخذ منه سنجار]. وهو في ثغر بإزاء الفرنج ويتعين مساعدته. فاتفق الجماعة على هذا الرأي ، وسار جمال الدين الوزير إلى نور الدين وأبرم معه الأمر وتسلم حصن حمص، وسلّم سنجار إلى أخيه. وعاد نورُ الدين وأخذ ماكان بسنجار من الأموال، واتفقت كلمتهما واتحدت آراؤهما وكل واحد منهما لايصدر إلا عن أمر أخيه.

وفيها اتصل الخبرُ بنور الدين بإفساد الفرنج بالأعمال الحورانية بالنهب والسبي وأن الأرض أجدبت لانحباس المطر وترّحل الفلاحون، فجاء نور الدين بجيشه إلى بعلبك ليوقع بالفرنج، فاتفق عند وصوله إلى بعلبك نزول الغيث واستمر من يوم الثلاثاء إلى مثله، وجرتِ الأودية وزادتِ الأنهار، وامتلأت برك حوران، فجهد الناس بالدعاء، وقالوا: هذا ببركته وحسن نيته وسيرته. ثم نزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العسكر، وراسل مجير الدين صاحب دمشق والرئيس مؤيد الدين بن الصوفي يقول: إنني ماقصدت بنزولي هنا طلبا لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية أهل حوران (

والعربان)أن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولايسعني مع ما أعطاني الله تعالى وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لايرضي الله ولا أحداً من المسلمين، ولا بد من المعونة بألف فارس تجرد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة. وكان الجواب: ليس بيننا وبينك إلا السيف. (وسيوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا. فلما عاد الرسول بهذا الجواب) كثر تعجب نور الدين، وأنكر هذا وعزم على الزحف، فجاءت أمطار عظيمة منعته من ذلك.

وفيها مات صاحب مصر الحافظ لدين الله بن أبي القاسم وقام بالأمر بعده ولده الظافر.

سنة خمس وأربعين وخمسمائة

في أولها تقرر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق، وسببه أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين، فراسله مجير الدين، ثم خرج إليه هو والرئيس ابن الصوفي، وبذلا له الطاعة وأن يخطب له بعد الخليفة والسلطان، وينقش اسمه على الدينار والدرهم، فرضي وخلع على مجير الدين والرئيس ابن الصوفي وطيب قلبيهما. وخرج إليه الأمراء والأعيان فخلع عليهم، وأفاض إحسانه على فقهاء دمشق وفقرائها، ورحل إلى حلب.

وفيها وردت الأخبار بأن العرب خرجوا على الركب العراقي بين مكة

والمدينة. وظهرت العرب على الحجاج، وأخذوا منهم مالا يحصى، حتى أنه أخذ من خاتون أخت السلطان مسعود ما قيمته مائة ألف دينار. ومات معظم الناس جوعاً وعطشاً وبرداً، وطلى بعض النساء اجسادهن بالطين ستراً للعورة. ووصل إلى دمشق من سلم منهم، فحكوا ما نزل بهم من المصيبة، وأنه كان من الحجاج من وجوه خراسان وعلمائهم وخواتين أمراء العساكر السلطانية والحرم والبنات والأموال والأمتعة الفاخرة ما لايمكن وصفه، وأن العرب استولوا على الجميع، فكسا أهل دمشق العراة منهم، وأطلقوا لهم ما يستعينون به على العود إلى أوطانهم.

وفيها أمطرت باليمن مطراً كله دم، فبقي أثره في الأرض وفي ثياب الناس.

قال ابن الجوزي:وفيها أسر جوسلين صاحب تل باشر وأعزاز وعين تاب ومرعش وغيرها من الحصون شمالي حلب، وكان على المسلمين منه بلاء عظيم، فجهز نور الدين سلحداره إليه في جيش، فظهر جوسلين عليهم وأسر السلحدار. فعز ذلك على نور الدين، فدس عليه جماعة من التركمان وقال: من قدر منكم على جوسلين أعطيته من الأموال والبلاد مهما أراد. فجاءت طائفة منهم فنزلوا في أرض عين تاب، فأغار عليهم جوسلين وأخذ منهم امرأة مليحة، فخلا بها تحت شجرة ، فكمن له التركمان وأخذوه أسيراً وأحضروه إلى نور الدين محمود، فأعطى الذي أسره عشرة آلاف دينار، وأخذ نور الدين جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع والحصون وأمن الناس شره.

سنة ست وأربعين وخمسمائة

في المحرم عاد نور الدين إلى حصار دمشق، فنزل بعيون الفاسريا بين

عـذرا ودومة، وأرسـل إلى مجير الـدين وجماعتـه يقـول: قـد كنت اتفقت معكم وحلفت لكـم، والآن فقد صح عندي أنكـم ظاهرتم الفـرنج، وما قصـدي إلا الجهـاد، فإن رجعتـم عـن الفـرنـج وأعطيتمـوني عساكـركـم لأجاهد في سبيل اللـه، رجعت عنكم، فلم يردوا عليه جواباً، فرحل ونزل مسجد القـدم، وأحدقت عساكـره بالبلد وضايقتـه، ولم يزحف خوفـا من سفـك دمـاء المسلمين، ووصلـت الأخبـار بمجـيء الفـرنـج لنصرة مجير الدين، فضـاقت صدور أهل الصـلاح، وزاد إنكارهم لمثل هـذه الأحوال المنكرة، ولم تـزل المناوشات تعمل في كـل يوم من غير مزاحفـة ولا محاربة إلى الثالـث عشر من صفر، فـرحل إلى داريـا مستعداً لقتال الفـرنج. فلما قرب الفـرنج من داريـا أشار على نـور الدين خـواصه بالـرحيل، وقـالوا: نبقى بين الفـرنج وعسكـر دمشق. فارتفـع إلى الزبـداني، ووصل الفـرنج داريا في جمع قليـل، وخرج مجير الـدين آبـق ومؤيـد الديـن ابن الصـوفي واجتمعا بملكهم،فما صادفـا عنده من القوة ما كانا يظنـانه، فاتفقوا على نزول الفـرنج على بصرى فإنها عصـت على مجير الديـن، ورحلوا إلى رأس الماء ونزلـوا على بصرى وضايقـوها، فلـم يظفروا منهـا بطائل، فعـادوا إلى بلادهـم، وبعثوا يطلبون من مجير الدين مـا قرره لهم على ترحيل نور الدين عـن دمشق، وبلـغ نـور الديـن ذلك فعـاد إلى دمشـق، وعرض عسكـره بالبقاع وكانوا ثلاثين ألفاً بـالتركمان والعرب وغيرهم، فنزل أرض كوكبا ثم رحل فنـزل جسر الخشب، ثم رحـل إلى مسجد القدم، فنـودي في دمشق في العسكر والاحداث بـالخروج إلى قتاله، فلم يخرج إلا اليسير، وأقـام مدة من غير قتـال ولا زحف،ثـم تـرددت بينهـم المراسلات ، على يـد الفقيه برهـان الديـن البلخي، وأسـد الدين شيركـوه وأخيه نجـم الديـن أيوب، وتقارب الأمـر إلى تجديد عهـود وأيمان وشروط اشترطها عليهـم، ثم رحـل عنهم عـاشر شهر ربيع الآخر طـالباً ناحية بصرى لأن واليهـا عصى على المسلمين واعتضـد بالفـرنج، فـالتمس نـور الديـن من دمشـق المناجيـق وآلات الحصار، وبعث ذلك مع قطعة من عسكره.

وفيها قصد أكثر الفرنج ناحية من البقاع على حين غفلة، فنهبوا ما فيها من المواشي، وسبوا النساء وأسروا الرجال، فنهض اليهم عسكر من بعلبك فلحقهم، وأرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما ثبطهم عن الوصول إلى بلادهم، فقتلوا من الفرنج مقتلة عظيمة، واستخلصوا الأسرى والمواشي.

وفيها ورد إلى مدينة سبتة مركب فيه جماعة من أسرى المسلمين وفيهم صبيان في جسدين أحدهما ملتصق بالآخر، وهما تامان في الخلقة سوى الفخذين والرجلين، فإنهما برجلين على فخذين يتكلمان العربية وقد تعلما شيئا من القرآن ، وذكرت الفرنج أنهم أصابوهما في بعض الجزائر أو في بعض المراكب ومعهما شيخ كبير وهو والدهما، وأنه مات بصقلية، وكانا جميلي الصورة فصيحي العبارة. وتسامع النصارى بهما فكانوا يأتون إليهما لمشاهدة غرائب صنع الله، ويحملان إلى المواضع والناس يبرونهما، وحصل لهما بذلك نعم طائلة وافرة. قال الكتبي في تاريخه: كذا نقلته من كتاب عطف الذيل لشيخ الشيوخ ابن حموية، قال: ونظير هذا ما حكاه التنوخي في كتاب نشوار المحاضرة أن صاحب أرمينية بعث إلى ناصر الدولة بن حمدان في سنة نيف وأربعين وثلاثمائة رجلين ملتصقين من إحدى الجانبين من فوق الحقو إلى دون الإبط، وكان أحدهما يمشي إلى جنب الآخر ويجعل يده التي تلي جانب أخيه خلف ظهر أخيه ويمشيان وأنهما كانا يركبان دابة ببردعة، وكان أحدهما إذا أراد البول قام الآخر معه. وكان معهما أبوهما، فتعجب منهما ناصر الدولة، وأجزل صلتهما ، وكانا يدخلان على الكبراء والأعيان في الليل حتى لايراهما الناس نهاراً، وحصلت لهما نعمة وافرة. قال التنوخي: وبلغني أن أحدهما مرض ومات وبقي الآخر بعده في عقاب لم يستطع أن يحمله معه، ثم نتن عليه ومرض بسريان العفن إليه فمات فدفنهما أبوهما، وكان عمرهما أكثر من ثلاثين سنة.

وفيها ملك الفرنج عسقلان لانهم ضايقوها، وقتل من الفريقين خلق كثير، وعجز من فيها فطلبوا الأمان فأمنوهم، وكان بها من الذخائر والعدد والغلال مالا يحصى، وقيل إن أهلها كانوا في ضائقة يرتقبون النجدة من مصر، فبينما هم في آخر نفس إذا بمركب صغير قد أقبل من مصر، وإذا فيه رجل ومعه كتاب من صاحب مصر إلى الوالي يقول له: ساعة وقوفك على هذا الكتاب تنفذ لنا من مقصبة عسقلان باقة قصب غلاظ نجعلها شبابات، فقال للرسول: نعم إلى غد. ثم خرج في الليل إلى الفرنج، وأخذ أماناً لأهل البلد.فلما طلع الفجر فتح الأبواب ودخل الفرنج البلد. فأحضر القاصد بالكتاب وقال له: هذا هو الجواب.

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

فيها توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ولم ير أحد من الملوك والسلاطين ما رأى ، وكانت أيامه نيفاً وثلاثين سنة. وذكر ابن هبيرة في كتاب الافصاح، قال: لما تطاول على المقتفي أصحاب السلطان مسعود وأساءوا الأدب ولم يمكنه المجاهرة بالمحاربة، اتفق الرأي على الدعاء عليه شهراً كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم على رعل وذكوان شهراً وابتدأ هو والخليفة سراً كل واحد في موضعه يدعو سحراً من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى، واستمر الأمر على ذلك كل ليلة، فلما كمل الشهر مات مسعود على سريره لم يزد على الشهر يوماً ولا نقص يوماً، فتبارك الله رب العالمين مجيب دعوة الداعين.

ولما مات أجمع رأي الأمراء على تقرير ملكشاه بن محمود ابن أخي مسعود فأجلسوه، واستمر ثلاثة أشهر، وقيل خمسة أشهر، وكان مقدم العساكر خاص بك فعن له أن يقبض على ملكشاه وينفرد بالملك، فقال للكشاه: إني أريد الملك لك من غير منازع، وأخوك ينازعك والمصلحة أن أقبض عليك، وأكتب إلى أخيك، فإذا وصل قبضت عليه وسلمته

إليك، فقال:افعل، فقبض عليه وكتب إلى محمد وهو بخوزستان يدعوه إلى السلطنة، فجاء إلى همذان فجلس على التخت، ودخل الناس يهنئونه ويخاطبونه في أشياء، فقال: ما لي في هذا الأمر شيء، كلامكم مع خاص بك، فهو الوالد والكل تحت يده، وقدم له خاص بك من المال والخيل والمماليك والجواهر شيئاً كثيراً، وأقام بهمذان أياماً. وبلغه ما في نفس الأمير خاص بك من التدبير عليه، فدعاه هو وزنكي الجندار وشملة التركماني وهو في أعلى قصر المملكة، فلما صعدوا درج القصر أحس شملة بالشر، فقال لخاص بك: ارجع فما هذا علامة خير، فلم يرجع ، فلما حصلوا في بعض مضائق القصر أخذتهم السيوف، فقتل خاص بك وزنكي الجندار وهرب شملة، ورموا برأسيهما وأكلت الكلاب لحومهما، واستولى محمد على أموالهما ومماليكهما. وكان مما أخذ من خاص بك ألف ألف دينار، وسبعون ألف ثوب من الأطلس، وثلاثمائة مملوك، وخمسمائة جارية، ومن النجائب والبغال والأثاث والخيم ما لا يوصف ولايحد. ومع هذا جبوا له من العسكر كفناً كفنوا به باقي جثته.

وبها فتح نور الدين انطرسوس عنوة وطلبوا منه الأمان على النفوس فأمنهم، وملك عدة من الحصون منها المرقب، وكان على الناس منه ضرر عظيم.

وفيها باض ديك بيضة واحدة، وبازي بيضتين، وباضت نعامة بغير ذكر، حكاه ابن الجوزي.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

فيها خرجت الغز على أهل خراسان، وهم تركمان ما وراء النهر نحو مائة ألف خركاه. فلما ملك الخطا ما وراء النهر، طردوا عنها هؤلاء الغز فنزلوا بنواحي بلخ على مراعيها، وهؤلاء يدينون بالإسلام في الجملة،

ويفعلون فعل التتار، فجهز اليهم سنجر العساكر مع الأمير قماج، فكسروه وقتلوا ولده، وغنموا ما كان معه وأكثروا القتل في العسكر والرعايا، وأسروا النساء والأطفال، وقتلوا الفقهاء، وعملوا العظائم، وخربوا المدارس، وهرب قماج إلى مرو. وأرسل السلطان سنجر يتهددهم، فأرسلوا جماعة من شيوخهم إلى سنجر، وقالوا : قد بغيت علينا ونصرنا الله عليك، وللبغي مصرعه، ونسألك إهدار ما جرى ونكون في خدمتك وتحت طاعتك، ولانريد منك شيئاً، بل نجعل لك علينا جعلا في كل سنة خمسين ألف رأس من الخيل والنجائب، ومثلها من الغنم ومائة ألف دينار. فأشار عليه أعيان أهل مملكته بالصلح، وأشار عليه قماج بأن لايصالح، فمال إلى قول قماج ورد الشيوخ خائبين، فعادوا إلى أصحابهم وقالوا لهم : استعدوا فلابد من قصدكم، فجاؤوا إلى صحراء واسعة كالحلقة الدائرة، والجبال محدقة بها، وليس لها طريق إلا من مضيق واحد، فنصبوا خركاواتهم فيها، وجعلوا الأموال والمواشي حولها كالسور. وجاءهم سنجر بعساكره، فدخل من ذلك المضيق ونشب القتال، وكانت سهام عسكر سنجر تقع في الخركاوات، وسهام الغز لاتقع إلا في الفرسان، وكان سنجر قد وقف عند المضيق في جماعة من أصحابه، ولم يدخل ينتظر الدائرة على من تكون، فحمل الغز حملة فطرحوا المسلمين مثل الغنم، وقتل قماج ومعظم عسكر سنجر، وصار قتلى العسكر كالتلال، وهرب من بقي إلى ناحية المضيق، فلحقهم الغز فأفنوهم من قبل وصولهم إلى المضيق، وخرج الغز إلى المضيق وسنجر واقف في بقايا عسكره، فتقدم إليه كبراؤهم وترجلوا وقبلوا الأرض،وقالوا: سألناك الصلح فأبيت، وأنت سلطاننا، وقد قتل بعض عبيدك وبقي البعض يشيرون إلى أنفسهم، ثم أفردوه عن أصحابه وصاروا كأنهم في خدمته، وهو معهم مثل الأسير يجلسونه على السرير لاغير، وتفرق عنه عسكره، وجاؤوا به إلى خراسان فنزلوا بلخ، واستولوا على البلاد، وأظهروا الفساد، وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوا ، وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد كلها،

وظهر من جورهم ما لم يسمع بمثله ويتعذر وصف ما جرى منهم في تلك البلاد،ولم يسلم منهم شيء سوى هراة ودهستان فامتنعت لحصانتها، كل هذا وسنجر معهم لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ثم عملوا له قفصاً من حديد وجعلوه فيه، وكانوا إذا جاؤوا له بطعام يدخر منه إلى وقت ينسونه فيه، كذا ذكره الكتبي في تاريخه.

وقال الشيخ عماد الدين ابن كثير: إنهم أسروا سنجر، فأقام عندهم شهرين، ثم أخذوه وساروا به فدخلوا كرسي مملكة خراسان، فسأله بعضهم أن يجعلها له إقطاعاً، فقال سنجر: هذا لايمكن ، هذه كرسي المملكة، فضحكوا منه وصفوا له، فنزل عن سرير الملك ودخل خانقاه، وصار فقيراً من جملة أهلها، وتاب عن الملك، واستحوذ أولئك الأتراك على البلاد، وأظهروا فيها الفساد، وأقاموا سليمان شاه ملكاً، ثم عزلوه وولوا ابن أخت سنجر الخاقان محمود بن محمد بن كوخان، وتفرقت الأمور، واستحوذ كل إنسان منهم على ناحية من تلك الممالك، وصارت الدولة دولاً. فسبحان من يعز ويذل.

وفيها كان الغلاء بدمشق، وبلغت الغرارة خمسة وعشرين ديناراً، ومات الفقراء على الطرق.

وفيها أخذت الفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ عسقلان، ولما أن نازلوها خرج المسلمون إليهم، وقاتلوهم، فطردوهم فأيسوا من أخذها وعزموا على الرحيل عنها، فأتاهم الخبر أن أهل البلاد قد اختلفوا، وذلك لأنهم لما قهروا الفرنج داخلهم العجب وادعى كل طائفة أن النصرة على يده، ووقع بينهم خصام على ذلك حتى قتل بينهم رجل فعظمت الفتنة، وتحاربوا فقتل بينهم جماعة ، ورجعت الفرنج في الحال، فلم يكن على السور من يمنعهم فملكوا البلد،(فإنا لله وإنا إليه راجعون) وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف.

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

فيها ملك نور الدين دمشق، وسببه أن الفرنج لما ملكوا في السنة الخالية عسقلان، قوي أمرهم بملكها حتى طمعوا في أخذ دمشق، واستضعفوا مجير الدين، وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا من القتل بها والسبي، ثم زاد الأمر إلى أن جعل الفرنج على أهل دمشق قطيعة كل سنة، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد، ثم إن طمع الفرنج تزايد حتى أرسلوا واستعرضوا العبيد والإماء الذين نهبوا من سائر البلاد الشامية ، وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب العود إلى وطنه ردّوه إليه، وكان الأمراءوأعيان الدولة يرسلون لنور الدين يقولون الغياث الغياث، ويقولون إن شئت حصرناه في القلعة، فرأى نور الدين أخذه بالملاطفة خوفاً من إعطائه البلاد للفرنج، فعدل إلى ملاطفته ومكاتبته ومهاداته، فأنس به، وصار يكاتبه ويستشيره، وكان يكتب إليه نور الدين إن فلاناً من الأمراء يكاتبني في كذا وكذا، فيقبض عليه مجير الدين، ولم يزل يكاتبه في الأمراء والأعيان حتى لم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ السلمي الخادم. وكان شهماً شجاعاً، وقد ردّ مجير الدين إليه أمر دولته. فكتب نور الدين إلى مجير الدين يقول: قد نفر عنك عطاء قلوب الرعية، فاقبض عليه ، لعلم نور الدين أنه لايتم له أمر دمشق مع وجود عطاء.فقبض عليه مجير الدين وأمر بقتله، فقال له عطاء: لاتقتلني، فإن الحيلة قد تمت عليك، وذهب ملكك، وسترى قولي، ولم يلتفت إليه، فحينئذ طمع نور الدين في دمشق، وراسل أحداثها وأعيانها ، فأطاعوه، فسار إليهم ونزل إليها.

وكتب مجير الدين إلى الفرنج يستنجدهم، وبذل لهم بعلبك وأموالاً كثيرة، وبلغ نور الدين ذلك، فزحف على دمشق، وظهر له العسكر من دمشق، ووقع الطراد بينهم أياماً، فلما كان يوم الأحد عاشر صفر، زحف إليهم ودفعهم إلى باب كيسان، ولم يكن على السور أحد من العسكر

لسوء تدبير مجير الدين، وجاء واحد من رجال نور الدين إلى السور، وعليه امرأة يهودية، فدلت له حبلاً فتسلق فيه، وتبعه الرجال ، وأصعدوا علماً، وصاحوا : نور الدين يامنصور، فامتنع الأجناد والرعية عن القتال والممانعة لما هم عليه من بغض مجير الدين وظلمه وعسفه ومحبتهم لنور الدين، وبادر بعض الخشابين بفأس إلى الباب الشرقي، فكسر أغلاقه وفتحه ، فدخل منه العسكر ، فلم يقف بين أيديهم أحد، ودخل نور الدين البلد، وصعد مجير الدين إلى القلعة معه خواصة، وأغلق أبوابها، فأرسل إليه نور الدين وطيب قلبه، وأمنه على نفسه، ونادى بأمان أهل البلد على نفوسهم وأموالهم، وتقرر الأمر بين مجير الدين ونور الدين على حمص، وكتب له منشوراً بها. وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من الأموال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية دار جده، وأقام أياماً، ثم سار إلى حمص بعد أن كتب له منشوراً باقطاعه عدة ضياع بأعمال حمص برسمه ورسم جنده، ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقهاء والتجار، وخوطبوا بما زاد في إيناسهم وسرورهم بما يعود بصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم، فأكثروا الدعاء له والثناء عليه.

قال ابن الأثير: ولما استقر نور الدين في البلد، عمل مع أهله مكرمة عظيمة وأظهر فيهم عدلاً عاماً، وذكر بعض ما قدمناه في أول الكتاب. وأقام مجير الدين بحمص. ثم كاتب أحداث دمشق في إثارة الفتنة، فبلغ نور الدين ذلك، فأعطاه بالس بدل حمص لبعدها عن دمشق، فلم يرض بها، ومضى إلى بغداد وبنى له داراً قبالة النظامية، وأقام بها إلى أن مات.

وفيها ظهر بنواحي واسط دم من الأرض لايعلم له سبب.

وفيها هاجت ريح شديدة بعد العشاء فيها نار، فخاف الناس أن تكون الساعة ، وزلزلت بغداد، وتغير ماء دجلة إلى الحمرة.

وفيها قتل بمصر خليفتها الظافر بالله العبيدي، وأقاموا ولده مكانه ولقبوه بالفائز ، وكان صغيراً لم يبلغ الخامسة . فكتب المقتفي لأمر الله عهداً لنور الدين بولاية مصر، ولقبه بالملك العادل، وأمره بالمسير إليها، فلم يتيسر له ذلك لاشتغاله بحرب الفرنج، وقرب عهده بأخذ دمشق.

وفيها ثارت الاسماعيلية، واجتمعوا في سبعة آلاف مقاتل من بين فارس وراجل وقصدوا خراسان، ووقع المصاف، فهزم الله الاسماعيلية، وقتل رؤوسهم وأعيانهم، ولم ينج منهم إلا القليل، وخلت قلاعهم من الحماة، ولولا أن عسكر خراسان كانوا مشغولين لملكوا حصونهم وقلاعهم، واستأصلوا شأفتهم.

سنة خمسين وخمسمائة

فيها تسلم نور الدين بعلبك وكانت بيد نجم الدين أيوب. وكانت قلعتها بيد رجل يقال له الضحاك البقاعي، وأحضر نجم الدين إلى دمشق وأقطعه إقطاعاً حسناً، وجعل ابنه توران شاه شحنة دمشق ثم من بعده جعل أخاه صلاح الدين هو الشحنة بها، وجعله من خواصه لايفارقه حضراً ولا سفراً، لأنه كان حسن الشكل ، حسن اللعب بالكرة، وفي شحنكية صلاح الدين يقول عرقلة الشاعر:

رويدكم يا لصوص الشام
فإني ناصح في مقالي
فإياكم وسمي النبي
يوسف رب الحجى والكمال
فذاك مقطع أيدي النساء
وهذا مقطع أيدي الرجال(٢٣)

وفيها أرسل أمير المؤمنين المقتفي إلى أمير الحرمين يأمره أن يركب على باب الكعبة المشرفة باب ساج جديداً قد ألبس جميع خشبه فضة مطلي

بذهب، وأن يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه، ويسير إليه خشب الباب القديم مجرداً ليجعله تابوتاً يدفن فيه عند موته.

قال أبو شامة: ذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفضة التي أخذها من الباب في اليمن ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم.

وفيها قتل أحمد بن محمد الحويزي. كان عاملاً للمقتفي على نهر الملك، وكان أظلم العالم يعلق الرجال بأرجلهم والنساء بثديهن في السرادق، ويعاقبهم بين يديه ويتنمس بالدين، والسجادة الزرقاء تحته والسبحة بيده وهو يسبح ويقرأ القرآن، والناس يعذبون بين يديه، ويومىء إلى الجلاد الرأس والوجه. وكان يدعي الكرامات ، دخل الحمام يوماً بقرية في نهر الملك، فدخل عليه ثلاثة فضربوه بالسيوف وقطعوه، فحمل إلى بغداد ، فمات ودفن في مقبرة جامع المنصور، وحفظ قبره لئلا ينبش، فأصبح وقد خسف بقبره، فاجتمعت العامة على سبه ولعنه، وأظهر الله فيه عظيم قدرته.

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

فيها حاصر نور الدين قلعة حارم، وهي حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية، وضيق على أهلها، وهي من أمنع الحصون وأحصنها، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه، وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يعرفهم قوتهم وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللغط، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم، وإن حفظتم أنفسكم أطقنا الامتناع عليه، ففعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح

على أن يعطوه حصةً من أعمال حارم، فأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية، فأجابوه إلى ذلك، فصالحهم وعاد.

وفيها خلص سنجر من أسر الغز بحيل، وهرب إلى قلعة ترمذ بعد أن أقام عند الغز أربع سنين في الذل والهوان، حتى ضرب به أهل بغداد الأمثال. وكان إذا مر على الانسان شدائد قالوا: أما اشتفى الغز من سنجر! وقيل إنه وعد الموكلين به بالمال العظيم، فأجابوه ووفى لهم، ودخل مدينة مرو وقد زال عنه البؤس.

وورد على نور الدين كتاب سنجر بالتشويق إليه وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه بما من الله عليه من خلاصه من الشدة التي كانت عليه بيد الغز بحيلة دبرها، بحيث عاد إلى منصبه من السلطنة، ووعده بنصره على الفرنج، فأمر نور الدين بزينة دمشق، وفعل في ذلك ما لم تجربه عادة فيما تقدم في أيام ملوكها، وأمر بزينة القلعة ، فحليت أسوارها بالجواشن والدروع والتروس والسيوف والأعلام وأنواع الملاهي، وهرع الخلائق والغرباء لمشاهدة ذلك فأعجبهم، وبقي أسبوعاً.

وفيها جاءت الأخبار بإغارة الفرنج على أعمال حمص وحماه. ثم سارت الفرنج في سبعمائة فارس سوى الرجالة إلى ناحية بانياس، فوقع عليهم عسكر الإسلام ونزل النصر، فلم ينج من الملاعين إلا القليل، وصاروا بين أسير وجريح وقتيل، وجاءت الرؤوس والأسارى، فكان يوماً مشهوداً، ثم تهيأ نور الدين للجهاد، وجاءته الأمداد، ونودي في البلد بالتأهب والحث على الجهاد، فتبعه خلق كثير من الفقهاء والصلحاء، ونازل بانياس، وجد في حصارها ، فافتتحها بالسيف، وجاء الفرنج لنصرة صاحب بانياس، وجد في حصارها، فافتتحها بالسيف، وجاء الفرنج لنصرة صاحب بانياس فلم يدركوه إلا وقد أخذت. وبلغ نور الدين أن الفرنج على الملاحة بقرب طبرية ، فنهض بجيوشه وجد في السير حتى أدركهم واقعهم وكسرهم، ووقع القتل والأسر في الكفر.

قال أبو يعلى: ولم يفلت منهم على ما حكاه الخبير الصادق غير عشرة نفر قيل إن ملكهم فيهم، وقيل قتل، ولم يفقد من المسلمين من الأجناد سوى رجلين أحدهما من الأبطال قتل أربعة ثم قتل رحمه الله، وجيء بالرؤوس والأسرى إلى دمشق فالخيالة على الجمال، والمقدمون على الخيل بالزرديات والخوذ، في أيديهم أعلامهم، وفرح المؤمنون، وضج الخلق بالدعاء لنور الدين.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

كان فيها وفي السنة التي قبلها زلازل عظيمة متوالية ، بالشام، وحلب، وحماه، وشيزر، وفامية، وكفر طاب، والمعرة، وأنطاكية، ودمشق، وحصن الأكراد، وطرابلس، فهلك بحلب تحت الردم خمسمائة ألف نفس، وأما حماه فهلكت جميعها إلا اليسير، وأما كفر طاب فما سلم منها أحد، وأما فامية فهلكت وساخت قلعتها، وأما تل عزاز فإنه انقسم نصفين وظهر في وسطه نواويس وبيوت كثيرة، وأما حصن الأكراد وعرقة فهلكا جميعاً، وسلم من اللاذقية نفر يسير، وهلك أكثر أهل طرابلس ونصف أهل أنطاكية، كذا ذكره ابن الجوزي. قال الذهبي:والله سبحانه وتعالى أعلم بصحة ذلك وتحقيق تفاصيله.

وقال غيره: إنه وقع أبراج قلعة حلب وغيرها، وانشق تل حران نصفين، وظهر فيه صنم قائم في الماء ، وخربت صيدا وبيروت وعكا وصور وجميع قلاع الفرنج.

قال ابن الأثير: بلغني من كثرة الهلكى أن بعض المعلمين بحماة فارق مكتبه لمهم له، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

قال: وأما أهل دمشق، فإنها توالت عليهم الزلازل في أيام وعددها، فارتاع الناس من هولها، وأخلوا منازلهم والمسقف، وخرجوا إلى الجامع والبساتين والصحاري، وأقاموا عدة أيام وليالي على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم. قال صاحب المرآة : ومات هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة انسان. نسأل الله العافية في العاقبة، وقد قيل في ذلك أشعار كثيرة منها:

روعتنا زلازل حادثات
بقضاء قضاه رب السماء
هدمت حصن شيزر وحماة
أهلكت أهله بسوء القضاء
وبلاداً كثيرة وحصوناً
وثغوراً موثقات البناء
فإذا مارنت عيون إليها
أجرت الدمع عندها بالدماء
وإذا ما قضى الله بأمر
سابق في عباده بالمضاء
حار قلب اللبيب فيه ومن
كان له فطنة وحسن ذكاء
وتراه مسجى باكي العين
مروعا من سخطة وبلاء
جل ربي في ملكه وتعالى
عن مقال الجهال والسفهاء

وفيها أخذ نور الدين شيزر من بني منقذ، وبعدما ملكوها مائة وعشرين سنة، وسلمها إلى مجد الدين ابن الداية، وشيزر حصن قريب من مدينة حماة على نصف نهار منها، وهو من أمنع القلاع وأحصنها على

حجر عال، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه (وكان لآل منقذ الكنانيين). فلما حصلت الزلزلة وخربت القلعة ولم يسلم بها أحد، بادر نور الدين وملكها وعمرها وأصلح أسوارها وأعادها كأن لم تخرب. وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

وفيها حصل لنور الدين مرض حاد وكان بالقرب من أنطاكية، فتوجه في محفة إلى حلب وحصل في قلعتها، وأوصى أن يكون أخوه نصرة الدين هو القائم في منصبه بعده، ويكون مقيماً في حلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، ثم اشتد به المرض، وتواصلت الأراجيف بموته، فتقلقلت النفوس، وانزعجت القلوب، وتفرقت جموع المسلمين، واضطربت الأعمال، وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهاجموها، فقتلوا وأسروا ونهبوا. ثم شاعت الأخبار ، وانتشرت البشائر في الأقطار بعافية نور الدين، فأنست القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتباشر المسلمون بذلك وشكروا الله تعالى.

وفيها خرجت الإسماعيلية على حجاج خراسان، فقتلوا وسبوا، واستباحوا الركب، وهلكوا عن آخرهم رحمهم الله.

وفيها كان بخراسان غلاء شديد حتى أكلوا الحشرات. وذبح انسان منهم رجلاً علوياً وطبخه وباعه في السوق، فحين ظهر عليه قتل نفسه.

وفيها أخذ المسلمون من الفرنج غزة وبانياس.

وفيها توفي السلطان سنجر بن ملك شاه، واسمه أحمد وإنما سمي سنجر لأنه ولد بسنجار، وكان عادلاً، جلس على سرير الملك إحدى وأربعين سنة مستقلا، وناب عن أخيه محمد اثنتين وعشرين سنة، قيل

إنه خلف من الجوهر ألف رطل وثلاثين رطلاً،قال الذهبي: وهذا لم يملكه خليفة ولا ملك، قال: وكان وقوراً مهاباً ذا حياء وكرم وشفقة على الرعية ، وخطب له على عامة منابر الإسلام، وأسره الغز أربع سنين، ثم خلص فتجمع إليه أطرافه بمرو، وكاد ملكه يرجع إليه ، فأدركته المنية.

قال أبو سعد بن السمعاني:

دخلت عليه في مرض موته مع جماعة من العلماء والمحدثين، فصافحنا بكلتا يديه وسأل الدعاء، وكان كلامه بالفارسية ما يفي هذا بذاك، وبكى وبكينا لبكائه، وانقطع بموت سنجر المملكة السلجوقية من خراسان، واستولى على أكثر ممالكه السلطان خوارزم شاه. ودفن سنجر في قبة عظيمة كان قد سماها دار الآخرة.

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

فيها نزل ألف وخمسمائة من الإسماعيلية على زوق تركان بخراسان فسبوا الحريم، وقتلوا الرجال، ورجعوا بالغنائم. فأسرع عسكر التركمان فأحاطوا بهم وقتلوهم، ولم ينج منهم إلا تسعة رجال فلله الحمد. قاله ابن الأثير: وفيها نزلت الفرنج على داريا فأحرقوها ونهبوها، وكانوا قد جاؤوا بغتة فقاتلوهم وأقاموا إلى الليل، ورحلوا بعد أن أحرقوا جامعها وعادوا على الأقاليم.

وفيها وقع برد أكبر من البيض.

وفيها وصل نور الدين إلى دمشق من حلب سالماً في نفسه، واستبشر العالم بمقدمه المسعود، وبالغوا في شكر الله على سلامته وعافيته والدعاء بدوام أيامه.

وفيها وقع في تموز بالبقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر كما جرت به العادة في تنبوك الشتاء ووصل إلى بردى، ووصل إلى دمشق، وكثر التعجب من آثار قدرة الله بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

سنة أربع وخمسين وخمسمائة

فيها هادن نور الدين ملك الروم القادم من القسطنطينية بقصد المعاقل الإسلامية بعد تكرار المراسلات، والاقتراحات في التقريرات، وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدمي الفرنج المقيمين في حبس نور الدين وأطلقهم، فقابل الروم هذا الفعل بما يضاهيه من الإتحاف بأثواب الديباج (وخيول حسنة) ، ورده إلى بلاده، ولم يؤذ أحد من المسلمين، فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

وفيها وقعت الفتنة بين العلوية والشافعية بخراسان، اتفق أن بعض أصحاب الفقيه المؤيد بن الحسين الموفقي رئيس الشافعية بمرو قتل انسانا من الشافعية اسمه أبو الفتوح الفستقاني خطأ، وهذا أبو الفتوح له تعلق بنقيب العلويين بنيسابوروهو ذخر الدين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسيني، وكان هذا النقيب هو الحاكم هذه المدة بنيسابور، فغضب من ذلك وأرسل إلى الفقيه المؤيد يطلب منه القاتل ليقتص منه ويتهدده إن لم يفعل، فامتنع المؤيد من تسليمه وقال: لامدخل لك مع أصحابنا، إنما حكمك على طائفة العلويين ، فجمع النقيب أصحابه ومن يتبعه وقصد الشافعية، فاجتمعوا له وقاتلوه ، فقتل منهم جماعة ، ثم إن النقيب أحرق سوق العطارين وحرقوا سكة معاذ أيضا.

واقتتلوا ثامن عشر شوال من سنة أربع وخمسين، وقامت الحرب على ساق، وأحرقت المدارس والأسواق والمساجد، وكثر القتل في الشافعية فالتجأ المؤيد الشافعي في شرذمة إلى قلعة فرخك، وقصر باع الشافعية

عن القتال، ثم انتقل المؤيد إلى قرية من قرى طوس وبطلت دروس الشافعية بنيسابور وخرب البلد، وكثر القتل فيه.

وفيها وقع بالعراق برد كبار، قال الذهبي: إنه كان فيه ما وزنه خمسة أرطال ونحو ذلك، وقيل إنهم رأوا بردة منها وزنها تسعة أرطال بالبغدادي، فأتلفت الغلال، وزادت دجلة زيادة عظيمة، فغرق بسبب ذلك محال كثيرة من بغداد، وصارت تلالا، ولم يعرف أحد موضع داره الا بالحزر والتخمين، وغرقت تربة أحمد، وخسفت هنالك القبور، وطاف الموتى على وجه الماء. قال ابن الجوزي: وفيها كثر المرض والموت.

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

وتعرف هذه السنة بسنة الخلفاء والملوك، لأن فيها مات: المقتفي، والفائز صاحب مصر، والسلطان ملكشاه، وخسرو شاه صاحب غزنة. وهي سنة قران المريخ لزحل في برج السرطان. قاله الكتبي في تاريخه.

ومن الاتفاقات الغريبة أن المقتفي وافق أباه في أشياء: من ذلك مرضهما بالتراقي، وموتهما في ربيع أول، وموت السلطان محمد شاه قبل المقتفي بثلاثة أشهر، وموت السلطان محمود قبل موت أبيه بثلاثة أشهر، وموت كل منهما بعد غرق بغداد بنحو سنة، ومن الغريب أيضا ما ذكره عفيف الناسخ[٢٤] قال: رأيت في المنام قائلا يقول: إذا اجتمعت ثلاث خاءات مات المقتفي، فمات في سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

قال ابن خلكان: أخبرني بعض مشايخ العراق الفضلاء أن المستنجد ابن المقتفي رأى في منامه في حياة أبيه كأن ملكاً بالسماء يكتب في كفه أربع خاءات، فعبر الرؤيا بأنه يلي الخلافة في سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وفيها بويع المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي، ودخل إلى الحجرة التي كان يقعد فيها فهجمت عليه أم أبي علي الحسن ومعها جواريها بأيديهن السكاكين ليقتلنه، فذعر منها، وقال: أماه، ما الذي صنعت حتى تستحلي دمي؟راقبي الله تعالى فيّ! فتوقفت عن قتله، فخرج من الحجرة، وجاء أصحابه فأحدقوا به، فقبض على أخيه أبي علي الحسن وهو صبي، ولم يضيق عليه، بل كان في ترفه وسعة، وانتقم من الجواري اللاتي أردن قتله.

وفيها مات صاحب مصر الفائزبالله وهو ابن احدى عشرة سنة، وكان يصرع، واسمه عيسى ابن الظافر، بايعوه وهو طفل بعد مقتل والده، وكانت الأمور راجعة إلى الملك الصالح طلائع بن رزيك وهو عبارة عن صاحب مصر.

وفيها بويع العاضد بن يوسف بن الحافظ، وهو ابن عم الفائز بن الظافر بن الحافظ، وهو آخر خلفاء العبيدية.

وفيها استعفى القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى ابن علي القرشي من القضاء بدمشق، فأعفاه نور الدين، وولى مكانه القاضي كمال الدين الشهرزوري، وكان من خيار القضاة ، واليه ينسب الشباك الكمالي الذي يجلس فيه الحكام بالجامع بعد صلاة الجمعة من المشهد الغربي بالجامع الأموي.

سنة ست وخمسين وخمسمائة

فيها قبض المؤيد على نقيب العلويين أبي الحسن زيد الحسيني، ونفى جماعة وقتل جماعة، وخربت نيسابور. ومما أحرق سبع عشرة مدرسة للشافعية وأحرقت خمس خزائن كتب ونهبت سبع خزائن وبيعت بأبخس الأثمان.

وفيها كان الرخص كثيراً ببغداد، وبيع اللحم أربعة أرطال بقيراط، والبيض كل مائة بقيراط.

وفيها مرض نقيب الأشراف بدمشق المعروف بابن أبي الجن مرضاً شديداً أيس منه، ففوض السلطان نور الدين النقابة وما كان بيده من الولايات إلى والده، واشتغل بتجهيز والده وترتيب أكفانه، وعقد له قبراً، فاتفق أنه عافاه الله، وانطرح ولده مريضاً، فمات في اليوم الخامس، فجهز بذلك الجهاز، ودفن في ذلك القبر الذي بناه لوالده.

وفيها قتل الملك الصالح فارس الدين أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمني وزير العاضد صاحب مصر، ووالد زوجته، وكان قد حجر على العاضد لصغره واستحوذ على الأموال، فقتله الحاشية، وهذا هو الذي بنى الجامع عند باب زويلة ظاهر القاهرة.

قال ابن خلكان: ومن العجائب انه ولي الوزارة في التاسع عشر، وقتل في التاسع عشر، ونقل تابوته في التاسع عشر، وزالت دولته في التاسع عشر، وكان الصالح من علماء الرافضة وأدبائهم. واستقر بمنصبه ولده.

سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم وحصرها، وجد في قتالها، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم، واجتمع الفرنج من سائر البلاد، وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف، فلم يجيبوه، وراسلوه وتلطفوا في الحال معه، فعاد إلى بلاده.

وفيها نهب عبيد مكة الحجاج، فرحلوا إلى المدينة ، ولم يطف أحد ولم يسع.

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد وهو للفرنج عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس وضرب الناس خيامهم ولم يكن لهم يزك ظناً من نور الدين أنهم لايقدمون عليه، فبينما الناس وسط النهار في خيامهم لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن، فالسعيد الذي ركب فرسه ونجا، فخرج نور الدين من ظهر خيمته عجلاً بغير قباء، فركب فرساً هناك للنوبة وفي رجله شبحة فنزل إنسان من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين وقتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن إليهم جزاء فعله، وقتل الفرنج وأسروا خلقاً كثيراً ونهبوا جميع الوطاق، وكان أكثر القتل في السوقة والغلمان.

وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر ما فيها من الخيام، ونصبها ببحيرة قدس على فرسخ من حمص، وبينهما وبين الوقعة أربعة فراسخ، واجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن نقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال، فوبخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلوا أو كثروا، والله لاأستظل بجدار حتى آخذ بثأر المسلمين وثأري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاج إليه الجند فأكثر، وفرق ذلك جميعه على من سلم. أما من قتل فأقر أولاده على إقطاعه، ومن لم يكن له ولد أعطاه لبعض أهله، فعاد العسكر كأن لم يفقد منه أحد، وأما الفرنج خذلهم الله فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها، قالوا إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا، فتوقفوا، وأكثر نور الدين من الخرج إلى أن فرق في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى الدواب

والخيام والسلاح وغير ذلك، وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه، فكل من ذكر شيئاً أعطوه عوضه، فحضر بعض الجند، وادعى شيئاً كثيراً علم النواب بكذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون القضية ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادعاه، فأعاد الجواب: لاتكدروا عطاءنا، فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره، وقال له أصحابه: إن لك ببلادك ادرارات كثيرة وصلات كثيرة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا وقال: (إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم[٢٥])والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لاتخطي، وأصرفها لمن يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وقد تصيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم، فسكتوا ، ثم كتب إليه نوابه: إذا لم تغير عليهم شيئاً وقد وقعت في هذه الورطة العظيمة ، فلو أمرتنا بالاقتراض من أرباب الأموال ما نستعين به على جهاد العدو، فقد نفدت الخزائن، ويطمع العدو في الإسلام، فبات مفكراً، وقال في نفسه: نقترض ثم ندفع العوض، ثم قال: ما أفعل؟ وبات قلقا إلى وقت السحر، فرأى إنساناً ينشد:

أحسنوا مادام أمركم
نافذاً في البدو والحضر
واغنموا أيام دولتكم
إنكم منها على خطر

فقام مرعوباً مستغفراً مما خطر له، وعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى، فكتب إلى نوابه : لا حاجة لنا بالأموال، ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها، وتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا.

وفيها ظهر شاور بن محمد السعدي من بلاد الصعيد، وجمع أوباش الصعيد والعبيد وخرج إلى القاهرة ، فخرج إليه رزيك بن الصالح، فهزمه شاور ودخل القاهرة ،فأخرب دار الوزاة ودور بني رزيك ونهبها، وبعث إليه العاضد بخلع الوزارة ، ولقبه أمير الجيوش، وكانت عادة خلفاء المصريين أنه إذا غلب شخص على صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم، وهو الملقب عندهم بالسلطان، ثم تتبع رزيك بن الصالح إلى أن أحضر فقتله، واستقر في المملكة وتلقب بالناصر، ثم أساء السيرة فخرج عليه أبو الأشبال ضرغام ابن ثعلبه من الصعيد، وتلقب بالمنصور، وجمع جموعاً كثيرة. فخرج إليه شاور، فهزمه ضرغام وقتل ولده، وخذل أهل القاهرة شاور، فانهزم إلى الشام. وكان نور الدين بالشام فتلقاه وأكرمه. وأقام عنده أياماً، ثم طلب منه العسكر، وقال: أكون نائبك بالديار المصرية، واقنع بما تعينه لي من الضياع والباقي لك، فأجابه نور الدين إلى ذلك، وسيأتي ذكره في السنة الآتية، وشاور هذا هو الذي قال فيه عمارة الشاعر من جملة قصائده:

ضجر الحديد من الحديد وشاور
في نصر دين محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله
حنثت يمينك يا زمان فكفر

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

فيها أمر نور الدين أسد الدين شيركوه بالتجهز للمسير مع شاور، لقصده في الاستصراخ والاستنجاد وإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة، فسار وأخذ معه كل فارس منتخب من فرسان الشام ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الشام مما يلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين،

فوصل أسد الدين هو ومن معه إلى مصر، فخرج إليهم أبو الأشبال ضرغام، فحاربهم أياماً، فلما كان في بعض الأيام التقوا على باب القاهرة، فحمل ضرغام في أوائل الناس فجاءته طعنة فخر صريعاً، وعاد شاور وزيراً، وكانت وزارة ضرغام تسعة أشهر ، وهي مدة الحمل.

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور وعاد عما قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضاً ، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام فأنف أسد الدين وأرسل نوابه فتسلموا بلبيس وحكم على البلاد الشرقية. فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر. وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فلما أرسل إليهم شاور يستنجدهم على إخراج أسد الدين من البلاد، بادروا إلى إجابته، وطمعوا في ملك ديار مصر، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهزوا وساروا.

فلما بلغ نور الدين خبر تجهزهم للمسير إليه سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الفرنج ليمتنعوا عن المسلمين، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر في مقامهم إن ملك أسد الدين مصر أشدّ من الخطر في مسيرهم ، فتركوا في بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة بيت المقدس، فاستعان بهم ملك الفرنج، ولما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين ، وقصد مدينة بلبيس، وأقام هو وعسكره، وجعلها ظهراً يتحصن بها، واجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس، وحاصروه بها ثلاثة أشهر وقد امتنع بها أسد الدين، وسورها من طين قصير جداً وليس له خندق، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاًولا نالوا شيئاً، فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سقط في أيديهم، وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام، وتسليم ما

بيده إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل، فرجعوا عنه.

قال ابن كثير: وقبض أسد الدين من شاور ستين ألف دينار، وسار إلى الشام، وعاد سالما.

وفيها فتح نور الدين حارم.

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما أصابه بالبقيعة من الفرنج ما أصابه، بعث إلى أخيه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن، ونجم الدين بماردين وغيرهم، فطلب منهم النجدة ، فبادروا وجاءوا إليه بأنفسهم إلا صاحب ماردين، فإنه جهز عساكره، وتأخر هو لعذر منعه.

فلما اجتمعت العساكر على مدينة حلب، سار بهم نور الدين إلى حارم ونازلها ، وبلغ الفرنج فحشدوا وجاءوا في ثلاثين ألف فارس وفيهم البرنس صاحب أنطاكية، والقمص صاحب طرابلس، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدوك معهم، وهو رئيس الروم ومقدمها. وكان معهم من الرجالة ما لا يحصى، فلما تقاربوا واصطفوا للقتال، بدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فاندفعوا بين أيديهم، وقصدوا بذلك أن يبعدوا الفرسان عن الرجالة، فتبعتهم الفرسان، فعطف حينئذ زين الدين في عسكر الموصل على الرجالة فحصدهم بالسيف. وعادت خيالتهم، ولم يمضوا في الطلب خوفاً على رجالتهم من العطف، فصادفوا رجالتهم بين قتيل وأسير، ولم يبق منهم قليل ولا كثير، فسقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا ، فلما رجعوا ، عاد عليهم المنهزمون، فبقوا في الوسط وقد أحدق

المسلمون بهم من كل جانب، فذلوا وخضعوا، وعمل فيهم السيف، ولم ينج منهم إلا من نجا به فرسه، وأكثر المسلمون فيهم القتل.

قال العماد الكاتب: قتل منهم عشرون ألفاً.

وقال ابن الأثير: زادت عدة القتلى على عشرة آلاف، وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة ، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن جميع ملوكهم أسروا، وهم الذين من قبل ذكروا، وسار نور الدين إلى حارم فملكها، وغنم ما كان فيها من الأموال والخيل والسلاح والخيام وغير ذلك، وعاد إلى حلب بالأسارى والغنائم ، وامتلأت حلب منهم، وبيع الأسير بدينار، وفرقهم نور الدين على العساكر، وأعطى أخاه وصاحب الحصن الأموال العظيمة والتحف الكثيرة، وعادوا إلى بلادهم.

قال الكتبي: وفادى نور الدين الملوك، وكان قد استفتى الفقهاء، فقال قوم بقتل الجميع، وقال قوم: نفاديهم ، فمال إلى الفدية، فأخذ منهم ستمائة ألف دينار معجلةً وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك، فكان نور الدين يحلف بالله تعالى أن جميع ما بناه من المدارس والأوقاف والربط وغيرها من هذه المفاداة ، وجميع وقفه منها، وليس فيها من بيت المال الدرهم الفرد، انتهى.

قال صاحب الروضتين: وبلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان أو قبيله، انفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل ، ومرغ وجهه وتضرع ، وقال : يارب ! هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك، أيش فضول محمود في الوسط، يشير إلى أنك يارب، إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر.

سنة ستين وخمسمائة

فيها فتح نور الدين بانياس عنوة، وكان معه أخوه نصرة الدين أمير ميران، فجاءه سهم في عينه فأذهبها، فلما رآه نور الدين قال له: لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت أن تذهب الأخرى، وكان مع نور الدين ولد معين الدين أنر الذي سلم أبوه بانياس للفرنج، فقال له نور الدين: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، قال: يامولانا، ولم؟ قال: لأن اليوم بردت جلدة أبيك من نار جهنم.

قال ابن الجوزي: وفيها ولدت امرأة ببغداد أربع بنات ، وبقي في بطنها ولد، فمات وماتت به، وعاشت البنات.

سنة إحدى وستين وخمسمائة

فيها سار نور الدين إلى حصن المنيطرة، ولم يحشد له ولا جمع عساكره، وإنما سار إليه على غرة من الفرنج إلى أن وصل إليه، فحاصره وأخذه عنوة، وقتل من به، وسبى وغنم. كذا قاله ابن الأثير. وذكر ابن شداد أن ذلك كان في السنة الآتية.

وفيها ثارت فتنة ببغداد بين الشيعة والسنة لأن الشيعة أظهرت النياحة والبكاء على أهل البيت يوم عاشوراء، وأعلنوا بسب الصحابة، وبالغوا حتى إنهم كانوا يضربون من رأوه مكحلاً، فثارت فتنة شديدة.

سنة اثنتين وستين وخمسمائة

فيها عاد أسد الدين شيركوه إلى مصر، وهي المرة الثانية، لما كان في نفسه من الحقد على شاور، لما فعله مما تقدم ، وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين، فسار في ربيع الآخر، ونزل

الجيزة غربي مصر على البحر، وتصرف في البلاد الغربية، وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً. ثم عدا إلى بر مصر والقاهرة، وسار إلى الصعيد، وكان شاور قد أعطى الفرنج الأموال وأقطعهم الإقطاعات، وأنزلهم دور القاهرة، وبنى لهم أسواقاً تخصهم، كان مقدمهم الملك مري وابن بيرزان، فاستغاث شاور بالفرنج، فأتوه ، وخرج شاور وعسكر مصر والفرنج، فأدركوا أسد الدين بمكان يعرف بالبابين، ولما بلغ أسد الدين خبرهم وكثرة عددهم استشار اصحابه، فكل أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا ـ وهو الذي لاشك فيه ــ فإلى أين نلتجىء وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ويودون لو شربوا دماءنا، وحق لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات الألوف ، مع أن كل أهل البلاد أعداؤهم.

فلما قالوا ذلك، قام إنسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين بزغش وكان من الشجاعة بالمكان المشهور، وقال: من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعتذرون به ليأخذن اقطاعاتكم، وليعودن بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: تأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار، فقال أسد الدين: هذا رأيي وبه أعمل، ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون. فرتب أسد الدين عساكره، فجعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب، وجعل معه الأثقال في القلب يتكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكا ن آخر فينهبها أهل البلاد. وجعل في الميسرة الأكراد، وقال لصلاح الدين ومن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أني في القلب

فيجعلـون جمرتهم بـإزائي وحملتهـم فيـه، فـإذا حملـوا عليكـم فـلا تصدقـواالقتال، ولا تهلكـوا أنفسكم، وانـدفعوا بين أيـديهم؛ وإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقـابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنـة ، وجعل شاور الفرنج في الميمنة مـع ابن بيرزان،وعسكـر مصر في الميسرة، وأقام هـو مع الملـك مري في القلـب ومعه شوكة الفـرنج والخيالـة، فلما تقابل الطائفتـان فعل الفـرنج مـا ذكـره أسد الـديـن، وحملـوا على القلب ظنـاً منهـم أنه فيـه، فقاتلهم مـن به قتالاً يسيراً ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعـوهم، فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عـن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين، فهزمهـم ووضع السيف فيهم، فأثخـن وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون. فلما عاد الفـرنج من إثر المنهزمين الذيـن كانوا في القلب، رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليـس به منهم ديار، فانهزموا أيضاً، وكان هذا مـن أعجب ما يؤرخ، أن ألفي فارس تهزم عسكـر مصر وفرنج الساحل.

ثم سـار أسد الـدين إلى ثغـر الاسكندريـة وجبى مـا في طريقهـا من القـرايا والسـواد من الأمـوال ووصـل إلى الاسكندريـة وتسلمها مـن غير قتال سلمهـا أهلها إليه، فـدخلها ونزل القصر، وجعـل فيه محبس الفـرنج الذيـن أسرهم، ثم استنـاب بها صلاح الـدين، وعاد إلى الصعيـد، وتملكه وجبى أمـواله، وخـرج شاور والفـرنج مـن القاهـرة فحصروا الإسكندريـة أربعة أشهـر وأهلها يقـاتلون مـع صلاح الديـن ويقوونـه بالمال، فـاشتد الحصار، وقل الطعام بـالبلد. فبلغ أسد الدين، فجمـع عرب البلاد وسار إلى الإسكندرية، فعـاد شاور إلى القاهرة، وراسـل أسد الدين يطلـب منه الصلح، وبذل له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابه إلى ذلـك، وشرط أن الفرنـج لايقيمـون بمصر ولا البـلاد، ولايتسلمون منهـا قـريـة واحدة، وأن الاسكنـدريـة تعـاد إلى المصريين، فـأجابـه إلى ذلـك

واصطلحوا، وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء فأنفذها إليه، فحمل فيها الضعفاء إلى دمشق.

وعاد أسد الدين إلى الشام وصلاح الدين معه، فخرج من الاسكندرية في النصف من شوال ، ووصل إلى دمشق ثامن ذي القعدة.

وأما الفرنج فإنه استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار.

وكل هذا يجري بين الفرنج وشاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس له من الأمر شيء، ولايعلم بشيء من ذلك، قد حكم عليه شاور وحجبه.

وعاد الفرنج إلى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

وفيها احترق اللبادين وباب الساعات بدمشق حريقاً عظيماً صار تاريخاً، وسببه أن بعض الطباخين أوقد ناراً تحت قدر هريسة ونام، فاحترقت دكانه، ولعبت النار في اللبادين ودور كثيرة من الخضراء، ونهبت أموال عظيمة، وأقامت النار في اللبادين ودور كثيرة.

وفيها دخل نور الدين بلاد الفرنج ومعه أخوه قطب الدين وصاحب الموصل، فاجتازوا على حصن الأكراد وهو للداوية، فلم يحاصروه لحصانته وصعوبته، وإنما أخذوا جميع ما في قراه ونواحيها، ثم ساروا إلى حصون لهم ففتحوها: بعضها بالسيف وبعضها بالأمان، منها حصن العريمة وحصن صافيتا، وأسروا وغنموا. ثم توجهوا إلى قلعة هونين، فلما قربوا منها أخلاها أهلها وأحرقوها. فلما وصل إليها نور الدين ، لم يجد فيها فائدة ، فأمر بخرابها وهدم سورها، وعزم على منازلة بيروت، فوقع

خلف في العسكر، فرجع ، وتوجه قطب الدين إلى بلاده، وأعطاه نور الدين الرقة، فاجتاز عليها في طريقه ورتب نوابه بها.

سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فيها قطع نور الدين الفرات واستولى على الجزيرة والرها، وعاد إلى منبج. وفيها قبض نور الدين على صاحب قلعة جعبر شهاب الدين بن مالك العقيلي . وسببه أن نور الدين كان قد رصد حول جعبر طائفة من العرب الكلابيين وأمرهم بالقبض عليه. فنزل ذات يوم من القلعة يتصيد في صحاريها، فأحاطت به العرب وبمن معه، فقبضوا عليه وأوصلوه إلى نور الدين فأعطاهم ألوفاً من الذهب والثياب، واعتقله وشدد عليه، ورام منه أن يسلم القلعة، فامتنع ، وذكر أن أهله لايطيعونه في ذلك، وبعث نور الدين بالجيش مع رسوله وكتابه، فلم يقدروا عليها بحرب ولا بسلم، ثم استولى عليها في السنة الآتية.

وفيها فوض نور الدين أمر حمص وأعمالها إلى أسد الدين شيركوه مضافاً إلى ما بيده، والتقدمة على جميع الجيوش، فبقيت حمص بيد أولاده أكثر من مائة سنة إلى أيام الظاهر.

سنة أربع وستين وخمسمائة

فيها أخذ نور الدين قلعة جعبر، وسببه أنه لما حصرها عسكر نور الدين ومقدم العسكر مجد الدين بن الداية في السنة الماضية ولم ير له في فتحها مجالا، ورأى أن أخذها بالحصر محال، سلك مع صاحبها طريق

اللين، وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين، ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج وأعمالها، والملاحة من أعمال حلب، والباب، وبزاعة، وعشرين الف دينار معجلة، فأخذ جميع ما شرطه مكرها في صورة مختار.

قال ابن الأثير: وهذا إقطاع عظيم جداً، ولكنه لاحصن فيه ، وتسلم مجد الدين قلعة جعبر، وصعد إليها، وهذه القلعة من أعظم الحصون وأحسنها، مطلة على الفرات لايطمع فيها بحصار. وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها. وقتل عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين ولم تزل بيد شهاب الدين العقيلي وبيد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه إلى هذه السنة.

قال ابن الأثير: بلغني أنه قيل لشهاب الدين: أيما أحب إليك وأحسن مقاماً، سروج والشام، أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، والعز بالقلعة فارقناه.

وفيها سار أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ثالث مرة، وسببه أن الفرنج قصدت الديار المصرية في جمع عظيم. وكان السلطان نور الدين في جهةالشمال ونواحي الفرات، فطلعوا من عسقلان، وأتوا بلبيس ونازلوها وحصروها، فملكوها قهراً، ونهبوها ، وسبوا أهلها وأقاموا خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة، فحمل أهلها الخوف مما فعلوه ببلبيس على الامتناع،فحفظوا البلد، وبذلوا جهدهم في حفظه.

وكان شاور قد أمر أهل مصر أن ينتقلوا إلى القاهرة، وأمر بإحراق مدينة مصر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم وأنذر أهلها، فخرج الناس منها على وجوههم وهجوا في بلاد مصر، وبلغت أجرة الحمل إلى القاهرة

ثلاثين ديناراً، وترك الناس أكثر أموالهم، فنهبت وأحرقت، وأقامت النارتعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً، ثم ضاق الحصار، وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية، فشرع في عمل الحيل، وأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة، وأن هواه معه، ويذكر له تخوفه من نور الدين والعاضد، وأن المسلمين لايوافقونه على التسليم إليه، ويشير عليه بالصلح وأخذ مال لئلا تسلم البلاد إلى نور الدين، فأجابه إلى الصلح على ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر البعض، فحمل إليه شاور مائة ألف دينار ومماطلة بالباقي، وسأله الرحيل عن البلد ليجمع له المال، فرحلوا قريباً.

وكان خليفة مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال: هذه شعور نساءٍ من قصري تستغيث بك لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر.

ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال، عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين مقيماً عنده في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث لنور الدين.

ولما أتى الرسل لنور الدين من العاضد، أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص. فلما خرج القاصد من حلب، لقي أسد الدين قد وصله، لأنه لما بلغه ذلك بقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار، لأنه كان قد طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكفار. فسار في يوم واحد من حمص إلى حلب، فإنه ركب وقت طلوع

الشمس من حمص ودخل حلب في آخر ذلك اليوم.ويقال إن هذا لم يتفق لغيره إلا للصحابة رضي الله عنهم. واجتمع بنور الدين ، فأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر، فاختار ألفي فارس، وأمر صلاح الدين بالخروج معه فامتنع ، وقال: يامولانا ، ما يكفي ما لقينا من الشدائد ؟ فقال: لابد من خروجك. فما أمكنه مخالفة نور الدين ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) (٢٦).

وجمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، وسار إلى مصر في جيش عرمرم قيل كانوا سبعين ألف فارس وراجل، فتقهقر الفرنج لمجيئه، ووصل إلى القاهرة، واجتمع بالعاضد فخلع عليه وأكرمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الخيرات الكثيرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك، ورأي العاضد معهم من داخل ، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه وهو يماطل أسد الدين في تقرير ماكانبذل له من المال، والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) (٢٧) ، ثم إنه كاتب الفرنج واستدعاهم، وقال: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر. وبلغ أعيان دولة المصريين ذلك، فاجتمعوا عند أسد الدين وقالوا: إن شاور فساد البلاد والعباد، وقد كاتب الفرنج وهو سبب هلاك الإسلام.

ولما تأخر وصول الفرنج، عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال: والله إن عزمت على هذا الأمر، لأعرفن أسد الدين، فقال له أبوه: لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً، فقال: صدقت، ولكن نقتل ونحن مسلمون والبلاد

بيد المسلمين، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، وليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لومشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد . فترك ما كان عزم عليه.

ولما رأى العسكر النوري المطل من شاور، اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك على قتل شاور. وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم، فقالوا: ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله، واتفق أن أسد الدين سار إلى زيارة قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه. فساروا معه قليلاً، ثم ألقوه عن فرسه. وأخذ أسيراً، وهرب أصحابه، وسجنوه في خيمة، وتوكلوا بحفظه. فعلم أسد الدين الحال، فعاد سريعاً، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه. وأرسل العاضد في الوقت يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله، فقتل وحمل رأسه إلى القصر، فأرسل العاضد إلى أسد الدين خلعة الوزارة معها منشور مكتوب على طرته بخط العاضد ما صورته:

« هذا عهد لم يعهد إلى وزير بمثله، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبيله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بخدمتك بنو النبوة،والتزم حق الامانة تجد للفوز سبيلاً» (ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً [٢٨]).

ولقبه بالملك المنصور سلطان الجيوش، ثم لم يلبث أسد الدين أن حضرته المنية بعد خمسة وستين يوماً من ولايته، فقلد العاضد بعده الأمر لصلاح الدين يوسف ، ولقبه الملك الناصر، وجهز إليله خلعة الوزارة،

وهي : عمامة بيضاء تنيسي بطرف ذهب، وثوب دبيقي بطراز دقيق ذهب، وجبة تحتها سقلاطي بطراز ذهب، وطيلسان دبيقي بطراز دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجرة صفراء من مراكيب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها بطوق، وسرفسار ذهب مجوهر، وفي رأسها مئتا حبة جوهر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة ، وفي رأسها شدة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخلعة عدة بقج من المسك، وعدة من الخيل وأشياء أخر، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض. كذا ذكره في الروضتين . وكتب تقليده القاضي الفاضل، وكتب العاضد على طرته:

« هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك. ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوة،ولمن بقي لثقته بنا أعظم سلوة، (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين[٢٩]) يعني بمن مضى أسد الدين، وبمن بقي صلاح الدين، قال العماد: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت ، وتبددت عقودها وما انتظمت.

فقام صلاح الدين بالسلطنة أتم قيام، وتاب عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع المتين.

ولما مات أسد الدين ، تطاول جماعة من الأمراء النورية، وكل منهم يطلب الأمر والوزارة لنفسه، منهم الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل وسيف الدين علي المشطوب، وشهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين. فطلب العاضد لصلاح الدين وولاه الأمر، وحمله على ذلك ضعف صلاح الدين ، وانه لايجسر على مخالفته.

ولما عاد صلاح الدين إلى دار الوزارة، لم يلتفت إليه أولئك الأمراء ولا خدموه، فقام بأمره الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، وأمال إليه المشطوب. ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في أخراجه عنه ولا يصل إليك، ولم يزل به حتى أحضره إلى عنده وحلفه له، ثم عاد إلى قطب الدين، وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد، فلا تخرج الأمر منه إلى الأتراك، ووعده زيادة إقطاعه ، فلان وحلف، ثم ذهب إلى عين الدولة الياروقي ـ وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً ـ فلم تنفعه رقاه، ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم صلاح الدين يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين بمن معه، فأنكر عليهم فراقهم له، وثبتت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه.

قال ابن أبي طي: ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ، مال إليه العاضد وأحبه محبة عظيمة، وبلغت محبته له أنه كان يدخل إلى قصره راكباً، فإذا حصل عنده أقام عنده اليوم والعشرة في قصره لايعلم أين مقره.

قال: ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ومال إليه العاضد، وبلغ ذلك نور الدين، أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره، وقال: كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري! وكتب في ذلك عدة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وما فارق قبول رأيه وإشارته، وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر وما صار إليه، وكان يقول كثيراً: ملك ابن أيوب. انتهى!

قال صاحب الروضتين: هذا كله مما تقتضيه الطبيعة البشرية والجبلة الآدمية، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك، إلا من عصم الله، ومن أنصف عذر. والذي أنكره نور الدين إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده بذلك من غير مشاورته، هذا مع أن ابن طي متهم فيما نسبه إلى نور الدين بما لايليق به، فإن نور الدين كان قد أذل الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم، وقوى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طي من رؤوس الشيعة، فنفاه من حلب، وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طي في كتابه متفرقاً في مواضع،فلهذا كان كثير التحمل على نور الدين رحمه الله، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به. انتهى.

وكان صلاح الدين في الصورة الظاهرة نائباً عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرفون إلا عن أمره، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلار ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه، ولا يفرده في كتاب بل الأمير الاسفهسلار صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية، يفعلون كذا أو كذا.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، فبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين جمعه، ومما أعطاه العاضد، فمال الناس إليه وأحبوه، وقوي أمره، وضعف أمر العاضد، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين إخوته، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: أخاف أن يخالفه أحد منهم فتفسد البلاد.

ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم أخو صلاح الدين شمس الدولة توران شاه، وهو أكبر من صلاح الدين ، فلما أراد أن يسير قال له: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر، فإنك تفسد البلاد، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت

تنظر إليه أنـه صاحب مصر وقائم فيها مقامـي، وتخدمه كما تخدمني فسر إليه، واشدد أزره، وساعده على ما هو بصدده. فقال: أفعـل معه الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله.

قـال ابن أبي طـي:ولما ملـك الناصر مصر، انتـزع نور الـديـن الرحبـة وحمص من ناصر الديـن ابن أسد الدين. ولقد كان نور الـدين يتألم لملك الملك النـاصر، ويقال إنه لما مرض قـال: ما أخطأت إلا في انفـاذي أسد الدين إلى مصر بعـد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يـوسف بـن أيوب، ثم التفـت إلى أصحابـه فقال: إذا أنـا مت فسيروا بابني إسماعيل إلى حلب، فإنه لايبقى عليه غيرها.

قال ابن أبي طـي: ولقد كان يبلغ الملـك الناصر من أقوال نـور الدين وأقوال أصحـابه أشياء تـؤلمه وتمضه، غير أنه تلقـاها بصدر رحـب وخلق عذب. حـدثني أبي عـن ابن قاضي الـدهليز ـ وكـان من خـواص الملك الناصر ـ قال: جـرى يومـاً بين يدي السلطـان ذكر نـور الديـن، فأكثـر الترحم عليـه، ثم قال: والله لقـد صبرت منه على مثل حـز المدي ووخز الإبر، وما قدر واحـد من أصحابه أن يجد علي ما يعده ذنبـاً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضـاً أن يجد لي هفوة يعدها ذنبـاً فلم يقدر، ولقد كـان يتعمد في مخاطبـاتي ومراسـلاتي الأشيـاء التي لايصبر على مثلهـا لعلي أتضرر أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوماً قط. انتهى.

وقد تقدم جواب صـاحب الروضتين قريباً، وقال هنـا: وقد وقفت على كتاب بخط نور الـدين إلى ابن أبي عصرون يشكر فيه من صـلاح الدين، وذلك ضد ما قاله ابن أبي طي، ثم أورد لفظ الكتاب.

وفيهـا قتـل الطـواشي مـؤتمن الخلافـة، وحصلـت وقعـة السـودان بين القصرين، وسببه أنه لما تملك صلاح الـدين نقص إقطاع المصريين، وكان

بالقصر طواشي يدعى مؤتمن الخلافة متحكم في القصر، فاجتمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ليقدموا إلى الديار المصرية ليخرجوا الجيوش الشامية ويعرفوهم بأنه إذا خرج عليهم صلاح الدين بمن معه، أخرج المصريون من يبقى معه بالقاهرة، وجهز الكتاب مع إنسان ممن يثق إليه، فاتفق أن رجلاً من التركمان عبر البئر البيضاء، فرأى مع انسان خلق الثياب نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي، فأنكرهما وأخذهما منه، وجاء به إلى صلاح الدين ، ففتقهما ، فوجد فيهما مكاتبة الفرنج من أهل القصر، يرجون بحركتهم حصول النصر. فأخذ الكتاب وفحص عن كاتبه، فذكر له أنه خط شخص من اليهود، فأحضره ليسأله ويعاقبه عن كتابته، فلما حضر بين يديه نطق بالشهادتين، ثم ذكر أن الآمر له بذلك مؤتمن الخلافة، فكتم صلاح الدين هذا (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم[٣٠]) فاستشعر الطواشي أن صلاح الدين قد اطلع على الأمر ، فلازم القصر مدة طويلة خوفاً على نفسه، ثم عنّ له في بعض الأيام أن خرج إلى قصر له بقرية يقال له الخرقانية بقرب قليوب وخلا فيه للذته، فأرسل صلاح الدين إليه من قبض عليه وقتله وحمل رأسه إليه، ثم عزل جميع الخدم الذين بالقصر، واستناب على القصر عوضهم بهاء الدين قراقوش، وأمره أن يطالعه بجميع الأمور صغيرها وكبيرها.

فلما حصل ذلك عاد السودان وثاروا وكانوا أكثر من خمسين ألفاً، فاقتتلوا هم وجيش صلاح الدين بين القصرين، واستمر القتال يومين، وقتل كثير من الفريقين.

وكان العاضد يتطلع من المنظرة ويعاين الحرب من المنظرة بين القصرين فقيل أنه أمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ، ففعلوا، وقيل كان ذلك عن غير اختياره، فأمر شمس الدولة

توران شاه الزراقين بإحراق منظرة العاضد،فلما هموا بذلك فتح باب المنظرة ، وخرج منه زعيم الخلافة، وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب أخرجوهم من بين أظهركم ومن بلادكم، وكان السودان قد قويت أنفسهم بناء على أن العاضد راض بفعالهم، فلما سمعوا ذلك، ضعف جأشهم وقوي عسكر صلاح الدين، ثم إن صلاح الدين أرسل إلى محلة السودان المعروفة بالمنصورة التي فيها دورهم وأهلهم بباب زويلة، فأحرقها؛ فولوا عند ذلك مدبرين، ووضع فيهم السيف، فقتل منهم خلق كثير، ثم طلبوا الأمان، فأجيبوا إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة.

وفيها قتل العاضد بالقصر الكامل وأخاه ابني شاور وعمهما، وذلك أنهم لاذوا بالقصر، ولو أنهم جاءوا إلى أسد الدين سلموا فإنه ساءه قتل شاور.

قلت: رحم الله الكامل بن شاور، فإن المرجو من الله أن يغفر له بقوله لأبيه لما هم بمسك أسد الدين ونهاه عن ذلك: « نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج. » كما قدمناه.

وفيها احترق جامع حلب فجدده نور الدين.

سنة خمس وستين وخمسمائة

فيها نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط.قال ابن الأثير: كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالاندلس وصقلية يستنجدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر، وأنهم خائفون على بيت المقدس من المسلمين، وأرسلوا جماعة من القسس والرهبان يحرضون الناس على الحركة، فأمدوهم بالمال

والرجال والسلاح، وقصدوا دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهيراً يملكون به ديار مصر، فلما نازلوها حصروها وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشد فيها كل من عنده، وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه، فجهز إليه نور الدين العساكر أرسالاً، كلما تجهزت طائفة أرسلها، فصارت الجيوش يتبع بعضها بعضاً.

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر فدخل بلاد الفرنج، فنهبها وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى ما لم يكن يبلغه لخلو البلاد من ممانع.

فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين بلادهم ونهبها وإحراقها، رجعوا خائبين، ولم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل السائر: « ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين»، فوصلوا إلى بلادهم، فوجدوها خاوية على عروشها، وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، أخرج فيها صلاح الدين من الأموال مالا يحصى، حكي لي عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها. انتهى.

قال الذهبي: إن اقامتهم بدمياط واحد وخمسون يوماً.

وقال الكتبي: ثلاثة وخمسون يوماً، قال: وجيّش صلاح الدين الجيوش مع ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهشاه، ومع خالة شهاب الدين محمود. ووقع في الفرنج الوباء والفناء، فرجعوا بعد أن مات منهم خلق كثير.

قال العماد الكاتب: بلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط انه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية،فجاء من جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث ان يتبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: اني لأستحيي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج.

وفيها وصل نجم الدين أيوب إلى مصر، فخرج صلاح الدين وجميع الأمراء، وخرج العاضد لتلقيه إلى باب الفتوح عند شجرة الإهليلج إكراماً لوالده، ولم تجر بذلك عادة، وكان من أعجب يوم شهده الناس، وخلع العاضد عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا.

وقال له صلاح الدين: ياأبتاه، هذا الأمر لك ونحن بين يديك، فقال له: ياولدي، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، فلا ينبغي أن يغير وضع السعادة ، فحكمه في الخزائن كلها، وكان رحمه الله كريماً يطلق ولا يرد.

وأقطعه صلاح الدين الاسكندرية ودمياط والبحيرة ، وأقطع شمس الدولة أخاه قوص وأسوان وعيذاب. وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف دينار وستة وستين ألف دينار.

وسبب توجه نجم الدين أيوب إلى مصر أن صلاح الدين أرسل طلبه من نور الدين ليكمل له السرور، وتجمع القصة مشاكلة لما جرى للنبي يوسف عليه السلام. قاله ابن شداد.

قال ابن أبي طي: إن سببه أن الخليفة المستنجد بالله أرسل من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب، وألزمه الخروج إلى الديار المصرية ، وحمله رسالة منها: «وهذا أمر تجب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت، وحصول الفوت، لاسيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته، وهو عنده من أعظم القربات».

وفيها توجه نور الدين إلى الكرك فنازلها ونصب عليها المناجيق، وأقام عليها أربعة أيام، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهنفري وابن الرفيق، وهما فارسا الفرنج في وقتهما ، في المقدمة إليه، فرحل نور الدين نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج، (فكانا في مائتي فارس وألف تركبلي، ومعهم من الراجل عالم كثير، فلما قاربهما رجعا القهقرى إلى من وراءهم من الفرنج[٣١]) فقصد نور الدين وسط بلادهم، ونهب ما كان على طريقه. ثم نزل إلى البلقاء.

وفيها قال ابن الأثير: وكان سبب توجه نور الدين إلى الكرك أن نجم الدين لما أراد التوجه إلى مصر، اجتمع له من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة ما لايقدر ، فخاف نور الدين عليهم، فسار إلى الكرك، وسار نجم الدين ومن معه من هناك.

وفيها كانت الزلزلة الكبرى، لم ير الناس من أول الإسلام مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام، ومصر، والجزيرة، والموصل، والعراق، والعواصم، وأنطاكية واللاذقية، وجبلة وجميع بلاد الساحل إلى الداروم، وتهدمت الأسوار والقلاع والدور، وهلك من الناس ما يخرج عن العدد والإحصاء.

ووقع معظم دمشق، وشرفات الجامع، وسقف رؤوس المنائر، وكانت تهتز مثل النخل في يوم ريح عاصف.

وكانت بحلب أعظم بحيث وقع نصف القلعة والبلد، وهلك من أهلها ثمانون ألفاً تحت الردم، ولم يمت بدمشق إلا رجل واحد أصابه حجر وهو على درج جيرون لأن أهلها خرجوا إلى الصحراء. قاله الكتبي في تاريخه: وبقي من نجا من أهل حلب لايقدرون أن يأووا إلى بيوتهم خوفاً من الزلزلة ، فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج، فحضر نور الدين وأمر بعمارة ما تهدم من البلاد والقلاع والأسوار والجوامع، وأخرج من الأموال ما لايقدر قدره، ورتب في كل بلد طائفة صالحة من العسكر خوفاً من الفرنج خذلهم الله.

وأما بلاد الفرنج فإن الزلزلة فعلت بهم أيضاً قريباً من هذا، وهم أيضاً خائفون على بلادهم من نور الدين، ووقعت قلعة حصن الأكراد. ولولا أن نور الدين كان بالبلقاء والفرنج قبالته لسار وأخذ حصن الأكراد، وجاءه ما أشغل قلبه من ناحية الشرق ودمشق، أما الشرق فوفاة أخيه قطب الدين مودود بالموصل، وأما دمشق فوفاة العمادي، وكان نائبه في حلب وغيرها، وكانت له بعلبك وتدمر، وكان عزيزاً عنده، وصاحبه وحاجبه. وبلغه أيضاً وفاة مجد الدين ابن الداية بحلب ـ وكان صاحب أمره.

وفيها أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن، وكان قديماً عند (قبة) أبي سليمان الداراني، فأحرقه الفرنج لما نزلوا على داريا أيام مجير الدين آبق، فعمره نور الدين هذه السنة، وجعله وسط القرية، وعمر بها مشهد أبي سليمان الداراني.

وفيها كانت حروب كثيرة بين ملوك الغرب بجزيرة الأندلس وكذلك بين ملوك الشرق.

- ١٠٩١٤ -

سنة ست وستين وخمسمائة

فيها سار نور الدين إلى سنجار ففتحها، وهدم سورها بالمناجيق، وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي.

ثم سار إلى الموصل - وكان بها سيف الدين غازي بن مودود - أخي نور الدين - باستخلاف من والده، وكان المتولي لأموره فخر الدين عبد المسيح، وهو المتحكم في المملكة، وليس لسيف الدين من الأمر إلا الاسم، وكان عبد المسيح هذا نصرانياً فأظهر الإسلام، وكان يقال إن له كنيسة في جوف داره، وكان سيء الخلق، خبيث السريرة في حق المسلمين والعلماء خاصة، فراسل عبد المسيح نور الدين يسأله الرجوع وعدم التعرض للموصل، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته، وقال له: قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك، فلا تدخل بيننا، وذكر له تهديداً كبيراً، وكان كل من في الموصل مع نور الدين، وكاتبوه بالوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه، فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمان لنفسه واقطاعاً يكون له، فأجابه إلى ذلك، وقال: لاسبيل إلى إبقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام، فإني لم آت لآخذ البلد من أولادي، وإنما جئت لأخلص الناس منه، وأتولى أنا تربية أولادي، فاستقرت القاعدة على ذلك، وسلمت الموصل إليه. وسكن القلعة، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى قلعتها خادماً يقال له كمشتكين، وجعله دزداراً فيها، وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة الشرعية.

ولما كان يحاصر الموصل، جاءته خلعة من الخليفة فلبسها، فلما دخل الموصل خلعها على ابن أخيه سيف الدين غازي، وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأعطى الشيخ عمر الملاء ستين

ألف دينار من فتوح الفرنج، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبني، وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً وسار إلى الشام، فقيل له: إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود، فقال: قد تغير قلبي فيها، فإن لم أفارقها ظلمت، ولمعنى آخر أنني ههنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازما للجهاد، كذا قاله صاحب الروضتين.

قال الشيخ عماد الدين بن كثير: إن نور الدين لما كان في آخر ليلة من إقامته بالموصل رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وهو يقول له: طابت لك بلدك ،وتركت الجهاد وقتال أعداء الله ! فنهض من فوره إلى السفر، وما أصبح إلا سائراً إلى الشام، واستقضى الشيخ أبا سعد بن أبي عصرون وكان معه على سنجار ونصيبين والخابور، فاستناب فيها ابن أبي عصرون نواباً، وأخذ معه عبد المسيح إلى دمشق، وغير اسمه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً حسناً(٣٢) .

وفيها كانت وفاة أمير المؤمنين المستنجد بالله وخلافة ابنه المستضيء ، وذلك أن المستنجد كان مرض في هذه السنة ثم عوفي، فعمل ضيافة عظيمة بسبب ذلك وفرح الناس.

وكان قد تغير على قطب الدين قيماز، مقدم جيوشه، وعلى ولده المستضيء، وأمر في مرضه بالقبض عليهما، فبلغ قيماز ذلك، فخلا بابن صفية الطبيب، وقال له: لابد من التدبير في الخلاص منه وإ لاّ فعلت بك وصنعت. قال: لاشيء أضر عليه من الحمام، قال: فأشر به عليه ، فأشار عليه، فقال: لست أريده ولا أطيق الحرارة، وطال الأمر على قيماز،فدخل على المستضيءواستوثق منه باليمين ، ثم دخل إلى الدار قهراً، وحمل المستنجد في فراشه، وأدخله الحمام وهو يستغيث ويقول: لا أريده، وقيماز يقول له : يامولانا ، هذا هو الذي ينفعك ولابد منه، ولماحصل في الحمام أغلق الباب حتى مات رحمه الله، وكان حسن

السيرة ، فيه محبة لأهل العلم والخير واكرام لهم وإحسان اليهم، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر فطناً ذكياً فصيحاً، يحكى عنه أنه التقى ابن شبيب في البرية فقال له: أين شتيت؟ فقال: عبدك ياأمير المؤمنين،أراد الخليفة ابن شبيب؟ وأراد ابن شبيب عندك

وكان رحمه الله من خيار الخلفاء وأعدلهم وأرفقهم بالرعايا، وضع عنهم المكوس والضرائب، ولم يترك بالعراق مكساً. وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس .

قال ابن الأثير : بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعايات، فأطال حبسه؛ فحضر بعض أصحابه وشفع فيه، وبذل له عشرة آلاف دينار، فقال له: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً مثله أحبسه، وأكف شره عن الناس.

قال الشيخ عماد بن كثير: إن المستنجد رأى النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة، وكان آخرهن قبل أن يلي بأربعة أيام وهو يقول له: قل اللهم أهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، دعاء القنوت بتمامه(٣٣) .

قال الذهبي: إنه ما زالت الحمرة الكثيرة تعرض في السماء عند مرض المستنجد، وكانت ترمي ضوءها على الحيطان.

وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة وشهراً، وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس، وهذا العدد له بحساب الجمل « اللام والباء»، وفيه يقول بعض الأدباء:

أصبحت لب بني العباس كلهم
إذا عددت حساب الجمل الخلفا

وولي بعده ابنه المستضيء أبو محمد الحسن، وخلع يومئذ على الناس أكثر من ألف خلعة ، وأطلق الأموال للأمراء العلويين والهاشميين والقضاة والعلماء، ورد المظالم وأسقط المكوس.

قال ابن الجوزي: وأظهر من العدل والكرم ما لم نره في الأعمار. قال: واحتجب فلم يركب إلا مع الخدم، ولم يل الخلافة من اسمه الحسن وكنيته أبو محمد غير الحسن بن علي رضي الله عنهما والمستضيء.

وفيها عزل صلاح الدين قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة ، وولي قضاء القضاة لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماردانى الشافعي، فاستناب في سائر المعاملات قضاة شافعية . وبنى صلاح الدين بالقاهرة موضع سجن المعونة مدرسة للشافعية. وبنى دار العدل مدرسة للمالكية.

وفيها اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه منازل العز بمصر، وعملها مدرسة للشافعية، ووقف عليها حمام الذهب والروضة وغيرهما.

وفيها بني الملك الناصر دار سعيد السعداء ـ خادم من خدام القصر ـ خانقاه للصوفية، وصنع بيمارستانا للمرضى، وبنى على تربة الشافعي رضي الله عنه بالقرافة مدرسة.

وفيها خرج صلاح الدين إلى الغزاة ، وأغار على الرملة وعسقلان، وهاجم ربض غزة، وكان بأيلة قلعة في البحر قد حصنها أهل الكفر، فعمر لها مراكب، وحملها إلى الساحل على الجمال، وركبها الصناع هناك، وشحنها بالرجال والعدد. (وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر،

واستحلها، واستباح بالقتل والأسر أهلها، وملأها بالعدد والعدد، وحصنها بأهل الجلاد والجلد (٣٤).) وكان على الحاج منهم خطر عظيم.

وفيها توجه صلاح الدين إلى الاسكندرية، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها ، وسمع بها حينئذ من السلفي.

وفيها شرع صلاح الدين بعمارة سور القاهرة لأنه قد تهدم أكثره، وصار طريقاً لايرد داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقراقوش الخادم.

وفيها أمر بتغيير شعار الإسماعيلية، وقطع الآذان بحي علي خير العمل من ديار مصر كلها. وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس.

وفيها ظهر بدمشق مغربي ادعى الربوبية، وأرى الناس خوارق من السحر، فضربت عنقه.

سنة سبع وستين وخمسمائة

فيها خطب لبني العباس، وسببه أن صلاح الدين لما استولى على مصر وضعف أمر العاضد، كتب إليه نور الدين يأمره بقطع خطبة المصريين وإقامتها لبني العباس، فخاف من أهل مصر أن لايجيبوه إلى ذلك لميلهم إلى العلويين، وربما وقعت فتنة لاتتدارك، فكتب إلى نور الدين يخبره بذلك، فلم يصغ إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاما لافسحة له فيه، واتفق أن العاضد مرض، فجمع صلاح الدين الأمراء والأعيان فاستشارهم فمنهم من أجاب، ومنهم من خاف ذلك، إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين، وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي يعرف بالأمير العالم. فلما رأى ما هم عليه من الاحجام، قال: أنا أبتدىء بها، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم ينكر أحد ذلك عليه. فلما كان الجمعة

الثانيـة، أمر صلاح الـدين الخطباء بمصر والقاهـرة بقطع خطبة العـاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر اللـه، ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر البلاد المصرية.

وكان العاضد قـد اشتد مرضه فلم يعلم بذلك، وقيـل بلغه فأرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصي إليه، فخـاف أن تكون خديعة، فلم يذهب إليه، ومات العاضد يوم عاشوراء كذا قاله ابن الأثير.

وقـال ابن أبي طـي الحلبي: لما عـول صـلاح الديـن على الخطبة لبنـي العباس، أمـر والده الأمير نجم الـدين بـالنزول إلى الجامع في جماعـة من أصحـابه وأمـراء دولتـه، وذلك في أول جمعـة مـن السنة، وأمـره أن يحضر الخطيـب إليه، ويـأمره بما يختـاره. وإنما فعـل ذلك الملـك الناصر ووكـل الأمر إلى غيره استظهـاراً خوفـاً من فادحـة ربما طرأت، أو عـدو ربما ثار، فيكون هو معتذراً من ذلك.

ولما حضر الخطيـب عند نجـم الديـن قـال له: إن ذكـرت هذا المقيـم بالقصر ضربت عنقك، قال: فلمـن أخطب؟ قال: للمستضيء العباسي. فلما صعـد المنبر، وخطب، ووصـل إلى ذكر الخليفـة لم يذكـر أحداً، لكنـه ذكر الخلفاء والأئمـة المهديين والسلطان الملك الناصر، ونـزل، فقيل له في ذلك، فقال: مـا علمت اسم المستضيء ولا نعوته، ولاتقـرر معي في ذلك قبل جمعة ، وفي الجمعة الثـانية أفعل إن شاء الله تعالى مـا يجب فعله من تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضـد لما اتصل به مافعل من قطـع اسمه من الخطبة قـال: لمن خطـب؟ قيـل لـه: لم يخطب لأحـد مسمـى، قـال: في الجمعـة الأخرى يخطبـون لرجل مسمـى، واتفق أنه مات قبـل الجمعةالثانيـة، قيل إنه أفكـر واستولى عليه الفكر والهم حتـى مات، وقيل إنه لما سمـع ذلك اهتم وقام ليـدخل إلى داره فعثر وسقط، فـأقام متعللاً خمسة أيـام ومات،

وقيل انه امتص فص خاتمه وكان تحته سم فمات، ولما اتصل موته بالملك الناصر قال: لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة، فحكي أن القاضي الفاضل قال للسلطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت.

قال: وحكى ابن المارستاني في سيرة ابن هبيرة الوزير قال: من أعجب ما جرى في أمر المصريين أنه رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر،والأنور منهما مسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول، فيهب أدنى نسيم فيحركها، وأنه حركها وظلها في الأرض ، وكان الرجل يتعجب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرأون بأصوات وألحان لم يسمع قط مثلها فسأل من حضر، وقال: ما هذا؟ فقالوا : استبدل الناس بإمامهم، قال: وكان الرجل استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً براً تقياً، واستيقظ الرجل وبلغ المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبر المنام بأن الإمام الذي بمصر يستبدل به، وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللحية. وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أول مرة بأنه يظفر بمصر، وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده، وقيل في ذلك الزمان أشعار في هذا المعنى، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن بركات، وكان صاحب ابن هبيرة، قالها حين سمع تأويل المنام:

لتهنك يا مولى الأنام بشارة
بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الأعادي بهمة
تقاصر عنها السمهري المثقف
بعثت إلى شرق البلاد وغربها
بعوثا من الآراء تحيي وتتلف
فقامت مقام السيف والسيف قاطر
ونابت مناب الرمح والرمح يرعف

وقـــدت لها جيشـــاً مـــن الـــروع هـــائلاً
إلى كـــل قلـــب مـــن عـــدا تـــك يـــزحـــف
ملكـــت بـــه أقصـــى المغـــارب عنـــوة
وكـــادت بمـــن فيهـــا المشـــارق تـــرجـــف
ليهنـــك يـــا مـــولاي فتحـــاً تتـــابعـــت
إليـــك بـــه خـــوص الـــركـــائب تـــوجـــف
أخـــذت بـــه مصراً وقـــد حـــال دونها
مـــن الشرك نـــاس في لهى الحق تقـــذف
وقـــد دنســـت منهـــا المنـــابـــر عصبـــة
يعـــاف التقـــى والـــديـــن منهـــم يـــأنـــف
فطهـــرهـــا مـــن كـــل شرك وبـــدعـــة
أغـــر عـــزيـــز بـــا لمكـــارم يشغـــف
فعـــادت بحمـــد اللـــه بـــاســـم إمـــامنـــا
تتيـــــه على كـــــل البـــــلاد وتشرف
ولا غـــرو أن دانـــت ليـــوســـف مصره
وكـــانـــت إلى عليـــائه تتشـــوف
تملكهـــا مـــن قبضـــة الكفـــر يـــوســـف
وخلصهـــا مـــن عصبـــة الـــرفـــض يـــوســـف

قـال يحيى بـن أبي طي: يـريد بيـوسف الأول يـوسف الصـديق عليـه السلام، وبيوسـف الثاني المستنجد باللـه الخليفة يومئذ، وقـاله على سبيل الفأل، ألا تراه قال بعد هذا البيت:

فشـــابهتـــه خلقـــاً وخلقـــاً وعفـــة
وكـــل عـــن الـــرحمن في الأرض يخلـــف

وجرى الفأل في البيت باسم الملك النـاصر صلاح الدين يـوسف بن أيـوب، لأن المستنجد مـات قبل تغيير الخطبـة لبني العبـاس، وهذا مـن عجيب الاتفاق.

قال العماد:

ولما توفي العاضد جلس السلطان الملك الناصر للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ الغاية في إجمال أمره، والتوديع له إلى قبره، ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه، وكان مذ قتل مؤتمن الخلافة قد وكل السلطان بالقصر بهاء الدين قراقوش، وجعله زمامه، واستنابه مقام نفسه وأقامه، فما دخل القصر شيء وخرج إلا بمرأى منه ومسمع، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع، فلما توفي العاضد، أمر السلطان بالاحتياط على أولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد،وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والازواد، وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محشورون لم يظهروا، وأنم عرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدة والعديد، والطريف والتليد، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهن، وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن. وأخلى دوره وأغلق قصوره، وسلط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود، وأخذ ما صلح له ولأهله من أخيار الذخائر، وزواهي الجواهر، ونفائس الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدرة اليتيمة، والياقوتة العالية الغالية القيمة، والمصوغات التبرية، والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية.

ووصف العماد أشياء عديدة ثم قال: وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، ولبيس وسحيق، وبال وأسمال، ورخيص وغال، وكل منقول ومحمول، ومصوغ ومعمول، واستمر البيع منها مدة عشر سنين، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين.

قال ابن أبي طي: لما تسلم القصر لم يجد من المال كبير أمر، لأن شاور كان قد ضيعه في إعطائه الفرنج في المرات التي تقدم ذكرها، ووجد فيه

ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر. ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبر وكسر قطعة واحدة ، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام، ووجد فيه طبل للقولنج إذا ضرب عليه أحد في باطنه ريح غليظ أو غيره خرج منه ذلك الريح من دبره، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المائع ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر، وأما قضيب الزمرد فإن السلطان أخذه، وأمر صانعاً ليقطعه، فأبى الصانع قطعه، فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع، ففرقه على نسائه.

وأما طبل القولنج، فأخذه بعض الأكراد ولم يدر ما هو، فضرب به فحبق ـ أي ضرط ـ ولم يدر ما شأنه فكسره.

وأما الابريق فأنفذه السلطان إلى بغداد، وفرق على الأمراء أشياء كثيرة من قطع البلخش والياقوت والذهب، ثم باع الباقي.

قال الكتبي في تاريخه: كان في القصر من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند خليفة ولا عند ملك مما قد جمع على طول السنين، فمنها الدرة اليتيمة مثل بيضة الحمام، والياقوتة الحمراء وتسمى حافر الحمار وزنها أربعة عشر مثقالاً، والجبل الياقوت الأحمر. وأرسل إلى نور الدين من ذلك عدةً من الأمتعة المستحسنة، والآلات المثمنة، وقطع البلور واليشم، والأواني التي لايتصور وجودها في الوهم، وثلاث قطع من البلخش أكثرها نيف وثلاثون مثقالاً، والثاني ثمانية عشر مثقالاً والأخرى دونهما، وفرق بها من اللآلىء مصونها ومكنونها، ومن الذهب ستين ألف دينار، ومن الطيب والعطر ما لم يسمع بمثله، ومن ذلك عمامة القائم بطيلسانه، فلما حضرت بين يدي نور الدين ـ وكان بحلب ـ قال: والله ما كان بنا حاجة إلى هذا، ما وصل إلينا عشر معشار ما انفقناه في العساكر التي جهزناها إلى مصر، وما قصدنا بفتحها إلا فتوح الساحل.

ومن جملة ما بيع خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا، يقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري. ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف مجلد، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة، وحصل القاضي الفاضل نخبها، وذلك أنه دخل إليها واعتبرها، وكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب، اشترى هو تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرمة. ثم جمعها بعد ذلك ومنها حصل ما حصل من الكتب قريباً من مائة وعشرين ألف مجلد.

قال ابن الأثير: كان فيه من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد.

قال ابن أبي طي: واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر، وأعطى السلطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة، وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري. ونقل الملك العادل إلى مكان آخر منه، وأخذ باقي الأمراء دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها ، بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسوراً.

قال ـ أي ابن أبي طي: وحكي أن الشريف الجليس ـ وكان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدثه ـ عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب، أخي السلطان، بعد (القبض على القصور وأخذ ما فيها) [٣٥] وانقراض دولتهم، وحضر معه جماعة من أكابر الأمراء . فلما جلسوا على الطعام، قال شمس الدولة للشريف: حدثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم،

قال: نعم ، طلبني العاضد يوماً ، فحضرت مع جماعة ، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية من أقبيتكم، وقلانس كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: ياأمير المؤمنين، ما هذا الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون ذخائرنا وأموالنا.

قال ــ أي ابن أبي طي : ولما قطعت خطبة العاضد، استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم، وصاروا لايقدرون على الظهور من دورهم، وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه، وعظمت الأذية بذلك، وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد، وفرح الناس بذلك، وكتبت الكتب به إلى الأقطار ، وتحدث به السمار.

ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عصرون، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر فيها، فسار إلى أن وصل بغداد، فخرج الموكب في تلقيه، وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل موروده، ونثرت عليه دنانير الإنعام، وحبي بكل إحسان وإكرام. وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين.

قال الذهبي في تاريخ الاسلام: ووصل الاستاذ عماد الدين صندل الطواشي إلى دمشق رسولاً من دار الخلافة في جواب البشارة بالخلع والتشريفات لنور الدين ولصلاح الدين. فلبس نور الدين الخلعة وهي فرجية، وجبة وقباء، وطوق ذهب ألف دينار، وحصان بسرج خاص، وسيفان، ولواء وحصان آخر بحليته، ونجيب بين يديه. وقلد السيفين إشارة إلى الجمع له بين مصر والشام، وخرج إلى دست السلطنة واللواء منشور، والذهب منثور إلى ظاهر دمشق. وانتهى إلى آخر المدينة. ثم عاد وسير إلى صلاح الدين تشريفاً فائقاً، لكنه دون تشريف نور الدين

بقليل، كان أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية، وقضى أهلها العجب. وكان معها أعلام وبنود وأهب عباسية للخطباء بمصر.

وسير إلى العماد الكاتب خلعة ومائة دينار من الديوان.

فائدة: العاضد آخر خلفاء العبيديين، وكان قاطعاً لدولتهم، لأن العاضد في اللغة القاطع، لايعضد شجرها أي لايقطع، يقال إن المعز لما أتى إلى القاهرة قال لديوان الانشاء: أكتبوا لنا ألقاباً يصلح لنا أن نتلقب بها، فكتبوا له ألقاباً آخر ما كان فيها لقب العاضد، وهو اتفاق غريب. وفأل عجيب.

واسم العاضد عبد الله، ولد سنة ست وأربعين وبويع له سنة خمس وخمسين وعمره تسع سنين، وعاش إحدى وعشرين سنة وخلافته إحدى عشرة سنة، وما نقلناه من كون مولده سنة ست وأربعين وخمسمائة قاله ابن كثير.

قال الكتبي: ولد سنة أربع وأربعين، وعاش ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة، وكان شيعيا خبيثاً لو أمكنه قتل كل من يقدر عليه من أهل السنة فعل، وكان هؤلاء الطائفة يدعوا شرفاً فاطميين، فملكوا البلاد وقهروا العباد، وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلاً ولا نسبهم صحيحاً، بل المعروف انهم بنو عبيد، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي، وقيل كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان حداداً، وعبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب سمي بعبيد الله وزعم أنه علوي فاطمي، وادعى نسباً ليس بصحيح لم يذكره أحد من مصنفي الأنساب العلوية، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك وتسمي بالمهدي، وبنى المهدية بالمغرب ونسبت إليه، وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للاسلام متظاهراً

بالتشيع،مستترا به، حريصا على إزالة الملة الاسلامية، قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة، كان يرسل على الفقهاء والعلماء فيذبحون في فرشهم، وكان ما قصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالتهم (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) (٣٦).

وكان له شيعة ببغداد وخراسان، وكانوا يرجفون أن المهدي يظهر بالمغرب ويغلب على الأرض كلها، وكان له دعاة بالمغرب يدعون الناس إليه وإلى طاعته، ويأخذون عليهم العهود، ويلقون إلى الناس من أمره بحسب عقولهم واحتال كل طبقة منهم، فمنهم من يلقون إليه أنه الله الخالق الرازق، وكان إذا ضج الناس من هذا، أخذ الدعاة، فمرة يحبسهم، ومرة يقتلهم ويقول: ما أمرت بهذا، ويقول الدعاة: هو أمرنا، وبأمره فعلنا، وله أن يمتحننا، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى هذه السنة.

وفي أيامهم كثرت الرافضة ، واستحكم أمرهم، ووضعت المكوس على الناس، واقتدى بهم غيرهم، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام كالنصيرية والدرزية، والحشيشية نوع منهم، وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم.

وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة حتى أخذوا : القدس، ونابلس، وعجلون، والغور، وبلاد غزة، وعسقلان، وكرك، والشوبك، وطبرية، وبانياس، وصور، وعكا، وصيدا، وبيروت، وصفد، وطرابلس، وأنطاكية، وجميع ما والى ذلك إلى بلاد سيس، واستحوزوا على : بلاد آمد، والرها، ورأس العين، وبلاد شتى غير ذلك، وقتلوا من المسلمين، خلقاً، مما لايحصيهم إلا الله، ، وسبوا ذراري المسلمين من النساء

والولدان مما لايحد ولا يوصف، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق، ولكن الله سلم لما من الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي ومن يلوذ به مثل صلاح الدين، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد، وكانوا أربعة عشر مستخلفاً عدة خلفاء بني أمية، لكن بني أمية كانت مدتهم نيفاً وثمانين سنة، وكان ثلاثة من هؤلاء المستخلفين بإفريقية، (وهم المهدي ، والقائم ، والمنصور ، والباقي بمصر) وهم الملقبون بالمعز، والعزير، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد. فالمهدي تولى خمساً وعشرين سنة ثم ولي بعده ابنه القائم بالله اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر وكان أسوأ حالاً من أبيه، وزاد شره أضعافاً مضاعفة، جاهر ـ لعنه الله ـ بشتم الانبياء. وكان ينادي في الأسواق بإفريقية والمهدية: العنو عائشة وبعلها، العنو الغار ومن حوى، وقتل الفقهاء والعلماء القتل الذريع.

ثم تولى بعده ابنه المنصور بالله سبع سنين وستة عشر يوماً.

ثم تولى بعده المعز لدين الله ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر، وله بنيت مدينة القاهرة، وهو أول من خطب له بمصر منهم، وأذن فيها بحي على خير العمل.

ثم تولى بعده ابنه العزيز بالله إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر.

وتولى بعده ابنه الحاكم بأمر الله، وعمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر، خمساً وعشرين سنة وشهراً، وكان أسوأهم سيرة، وأقبحهم سريرة، وكان يجري منه ما لو جرى من الصبيان حالة لعبهم لاستنكر، ولنذكر شيئاً من أفعاله القبيحة وسيرته الملعونة، أخزاه الله تعالى، كان قبحه الله كثير التلون في أقواله وأفعاله، وكانت أخلاقه متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى

الصلحاء وقتل الصلحاء، ، والغالب عليه السخاء، وربما بخل بما لم يبخل به أحد، ولبس الصوف سبع سنين، وامتنع من دخول الحمام، وبقي ثلاث سنين يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً، ثم عنّ له أن لايجلس إلا في الظلمة، وكان يتوصل إلى القتل بكل حيلة، وقتل من العلماء والكتاب ما لا يحصى، وجرى في أيامه أمور كثيرة عجيبة، منها أنه أمر بسب الصحابة رضي الله عنهم، وأمر أن يكتب ذلك على أبواب المساجد والشوارع، ثم محاه ونهى عنه، ثم أمر بقتل الكلاب، ثم نهى عنه، ونهى عن صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها، ، وهدم قيامة وبنى مكانها مسجداً، ثم أعادها كما كانت أولاً، وبنى المدارس وجعل فيها العلماء والمشايخ، ثم هدمها وقتلهم، وكانت أفعاله كلها من هذه النسبة، ومنها أنه كان يعمل الحسبة بنفسه، فيدور في الأسواق على حمار له، فمن غش في معيشته أمر عبداً أسود يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، ولم يسبق إلى هذا الأمر المنكر غيره عثره الله. ومنها أنه منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلاً ونهاراً، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف المتخذة للنساء، ولم تزل النساء ممنوعات من الخروج إلى الطرقات إلى خلافة الظاهر.

قال ابن خلكان: وكانت مدة منعهن سبع سنين وسبعة أشهر، ومنها أنه أمر بغلق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً، فامتثلوا ذلك دهراً طويلاً، حتى مر يوماً بشيخ يعمل النجارة بعد العصر، فوقف عليه وقال: ألم أنهكم عن هذا؟ فقال: ياسيدي، ما كنا نسهر لما كنا نتعيش في النهار، فهذا من جملة السهر، فتبسم وتركه، وأعاد الناس إلى أمرهم الأول، ومنها أنه نهى عن أكل الملوخية والجرجير وعلل تحريم الملوخية بميل معاوية إليها، وعلل تحريم الجرجير بكونه منسوباً إلى عائشة رضي الله عنها، وعذره قبحه الله أنجس من ذنبه، واطلع على جماعة أكلوا الملوخية ، فضربهم بالسياط، وطاف بهم القاهرة، ثم ضرب رقابهم على باب زويلة، ومنها أنه نهى عن بيع الرطب، وجمع منه شيئاً كثيراً وأحرقه، وكان مقدار النفقة

على إحراقه خمسمائة دينار، ونهى عن بيع العنب، وأنفذ شهوداً إلى الجيزة ومعاملها حتى قطعوا أشياء كثيرة من كرومها ورموها إلى الأرض، وداسوها بالبقر. وجمع ما كان في مخازنها من جرار العسل فحملت إلى شاطىء النيل وكسرت وقلبت في البحر، ونهى عن بيع الزبيب على اختلاف أنواعه، ومنع الناس من حمله إلى مصر، ثم جمع منه شيئاً كثيراً وأحرقه، ونهى عن بيع السمك الذي لاقشر له، ثم ظفر بمن باعه فقتله.

ومنها أنه أمر النصارى أن تحمل في أعناقهم الصلبان، وأن يكون طول الصليب ذراعاً، وزنته خمسة أرطال، وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرامي خشب زنة الصلبان، وأن يلبسوا العمائم السود، ولايكتروا من مسلم حماراً ولا بهيمة، ثم أفرد لهم حمامات ، وأمرهم أن يدخلوا إليها والصلبان والقرامي في أعناقهم، وأمرهم في وقت بالدخول في الاسلام كرهاً، ثم أمرهم بالعود إلى أديانهم، فارتد منهم في سبعة أيام ستة آلاف نفر، وخرب كنائسهم ثم أعادها ، وكان يفعل ذلك اختباراً لطاعة العامة ليترقى إلى إدعاء الربوبية كما ادعاها فرعون في زمن موسى عليه السلام.

وكان أمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوم الناس صفوفاً احتراماً لاسمه، وكان يفعل ذلك في سائر مملكته حتى في الحرمين الشريفين، وكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خروا سجداً حتى إنه يسجد بسجودهم من في الأسواق من الرعاع وغيرهم.

ثم ادعى الربوبية وكتب له: بسم الحاكم الرحمن الرحيم، وصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون : ياواحد، ياأحد، ياحيى، يامميت، وادعى علم الغيب في وقت، وكان يقول: فلان قال في بيته كذا وكذا، وكان ذلك باتفاق اعتمده مع العجائز اللواتي يدخلن إلى بيوت الأمراء وغيرهم ويعرفنه ذلك. فرفعت إليه في أثناء ذلك رقعة مكتوب فيها:

بـــالجور والحكـــم قـــد رضينـــا
وليـــس بـــالكفـــر والحماقـــة
إن كنـــت أوتيـــت غيبـــاً
بين لنـــا كـــاتـــب البطـــاقـــة

فحين قرأهـا سكت عن الكلام في المغيبـات، وكان هو وأصحابـه من الخلفاء بمصر يدعون السيادة ويقولون: نحـن من ولد فاطمة بنت رسول اللـه صلى الله عليـة وسلم، يـريدون الافتخـار بذلـك على بني العبـاس خلفـاء بغداد، فيقـولون: أبـونا علي بـن أبي طـالب رضي اللـه عنه وأمنـا فاطمـة رضي الله عنها، وكان الحاكـم يقول ذلك في كـل جمعة على المنبر، وكانـت ترفع الـرقاع وهو على المنبر في أشغال النـاس، فرفعت إليـه رقعة مكتوب فيها:

إنـــا سمعنـــا نسبـــاً منكـــراً
يتلى على المنبر في الجامـــع
إن كنـــت فيما قلتـــه صـــادقـــاً
فـــانسـب لنـــا نفسـك كـالطـائع

أو كـــان حقـــاً كما تـــدعـــي
فـــاعـــدد لنـــا بعـــد الأب السـابـــع
أو فـــدع الأشيـــاء مستـــورة
وادخـــل بنـــا في النســـب الـــواســـع

فرماها من يده ولم ينتسب بعدها.

وحكى سبـط ابن الجوزي في مـرآة الزمـان: أن المحضر الذي بـرز من ديوان القادر بالله بالقدح في الحاكم وفي أنسابه كان من شهد فيه وأثبت اسمـه ونسبـه في هـذا الكتـاب مـن السـادة والأشراف والقضـاة والعلماء والعـدول والأكابـر والأماثـل ما يعـرفونـه من نسـب الديصـانية الكفـار المنسوبين إلى ديصان بن سعد الخرمي، شهـادة يتقربون بها إلى الله تعالى،

معتقدين مـا أوجب الله تعالى على العلماء أن يبينوه للنـاس ولايكتمونه . شهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم:

حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال والاستيصال :

ابن معد بن اسماعيل بن عبد الـرحمن بن سعيد لا أسعده الله، وأنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله،و لقب نفسـه المهدي، ومن تقدمه من سلفه الانجاس الروافض الكلاب الارجـاس عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين أدعيـاء لانسب لهم في ولـد علي بن أبي طـالب رضي اللـه عنه، ولايتعلقون منـه بسبب مـن الاسباب وأنهم كفار فجـار ملحدون زنـادقة معطلـون وللإسـلام جاحـدون، ولمذهـب المجوس معتقـدون، قد عطلـوا الحدود، وأباحـوا الفروج، وسفكوا الدمـاء، وسبوا الأنبياء عليهـم الصلاة والسـلام،وادعوا الـربـوبية ، وكتـب فيه مـن الأعيـان الرضي والمرتضـى، والشيخ أبـو الحسن الاسفـرائيني، والشيخ أبـو الحسن القـدوري، وجماعة من العلماء ببغـداد وأعيانها، وصنف لـه بعض الباطنيـة كتاباً ذكـر فيه أن روح آدم انتقلـت إلى علي، وروح علي انتقلـت إلى الحاكـم، وقـرىء هـذا الكتاب بجـامع القـاهرة، فقصـد الناس قتـل مصنفه، فسيره الحاكـم إلى جبال الشام بناحية وادي التيم وناحيـة بانياس، فاستمال الناس وأعطاهم المال، وأباح لهم الخمور والفـروج، وأقام عندهم مدة يدعـوهم إلى معتقد الحاكـم، فـأضـل منهـم خلقـاً كثيراً، وهنـاك قـرى كثيرة إلى يـومنـا هـذا يعتقـدون خـروج الحاكـم، وأنـه لابـد أن يعـود ويمهـد الأرض، وهـذه خيالات فاسدة وظنون كاذبة،نعوذ بالله منها.

وكان السبـب في هلاك الحاكم أنه أراد قتـل أخته سيدة الملـوك، وهم أن يرسل إليهـا القوابل ليتحقق بكـارتها، وقال لبعض قهارمتهـا: سمعت أنكم تجمعون الجمـوع، وتدخل إليكم الرجال، ولابـد من قتلكم أجمعين، وتكرر هـذا القول منه مـراراً، فعلمت أختـه أنه يقتلها لا محالـة لما تعلمه

من خبث طويته، ومؤاخذته بالصغائر، واصراره على الكبائر، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه، وكانت من النساء المدبرات ، فخرجت يوماً وأتت إلى دار الأمير سيف الدين ابن دواس، وكان الحاكم قد عزم على قتله وقتلها، فاجتمعت به وعرفته ذلك، فقال لها: كيف الحيلة في أمره؟ قالت: الرأي عندي أن تجهز له رجالاً يقتلونه عند خروجه إلى حلوان، فإنه ينفرد لنفسه، وأنت تكون المدبر لدولة ولده، والوزير له، فاتفقا على ذلك، ثم رجعت إلى قصرها، فلما كان صبيحة النهار خرج الحاكم على عادته، وانفرد بنفسه على المقطم، وكان ابن دواس قد أحضر عشرة عبيد وأعطى كل واحد منهم خمسمائة دينار، وعرفهم كيف يقتلونه، فسبقوه إلى الجبل، فلما انفرد، خرجوا عليه وقتلوه بالقرب من حلوان. فخرج الناس على عادتهم يلتمسون رجوعه ومعهم دواب المواكب، ففعلوا ذلك سبعة أيام، ثم رأوا حماره الأشهب المدعو بالقمر وقد قطعت يداه وعليه سرجه ولجامه، فتبعوا أثر الحمار إلى أن انتهوا إلى المقصبة التي في شرقي حلوان، فنزل رجل إليها ، فوجد ثيابه مزررة لم تحل أزرارها وفيها آثار السكاكين ، فلم يشكوا في قتله.

ثم تولى بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين الله خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام.

ثم تولى بعده ابنه المستنصر بالله سبعاً وستين سنة، وكان في أيامه غلاء وشدة.

ثم تولى بعده ابنه المستعلي بالله أبو القاسم أحمد سبع سنين وشيئاً.

ثم تولى بعده ابنه الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور . بويع وله من العمر خمس سنين، وقام بدولته الأفضل بن أمير الجيوش تسعاً وعشرين سنة ، وهو العاشر من صلب عبيد الله الملقب بالمهدي.

ثم تولى بعده ابـن عمه الحافظ لدين الله ابـن الأمير أبي القاسم محمد ابن المستنصر تسـع عشرة سنة وشيئـاً، ولم يل منهم منـذ قام المهـدي من أبوه غير خليفة إلا هذا والعاضد.

ثم تولى بعده ابنه الظافر بالله خمس سنين ونصفاً.

ثم تولى بعده ابنه الفائز بنصر الله ست سنين وأشهراً.

ثم تـولى بعده العاضد لـدين الله، وانقطعت تلك الدولة، فـالحمد لله على مـا يسر مـن هلكهـم وإبـادة ملكهـم، ورضي عـن مـن سعـى في ذلـك وأزالهم، ورحم من بين مخرقتهم وكذبهم ومحالهم.

وفيها بدأت الوحشة بين نو الدين وصـلاح الدين لأن نور الدين كتب إلى صلاح الدين بأن يجمع العساكر ويحضر إلى الشام ليحصر ا الكرك، ويجتمعا هنـاك لتدبير أمور لايمكن ذكـرها في كتاب، فبرز صلاح الـدين إلى بلبيس وكتب إلى نور الدين يخبره بأنه واصل.

وخرج نور الدين من دمشق، فنزل على البلقاء، وأقام ينتظره.

وشاور صلاح الـدين أصحابه ، فخوفـوه من نور الدين، وأثنـوا عزمه، فكتب يعتذر من اختلال البلاد وأنه متـى أبعد عنها لايأمن أهلها، فشق ذلـك على نـور الديـن ولم يقبـل عـذره، وعزم على قصـد مصر وإخـراج صلاح الدين منها، وشرع يتجهز.

وبلغ صـلاح الدين، فجمـع الأمراء وأهله، وقـال: ما ترون؟ فلـم يجبه أحد منهـم بشيء، فقام ابـن أخيه تقـي الديـن، وقال: إذا جـاءنا قـابلناه وصددناه عن البـلاد، ووافقه غيره من أهله، فشتمهم نجم الـدين أيوب، وأنكر ذلـك واستعظمه، وكـان ذا رأي وعقل، وقال لتقـي الديـن: اقعد،

وسبه. وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين خالك، أنظر في هؤلاء، كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال: والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين، لايمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بقتلك لفعلنا، فإذا كنا نحن (كذلك) فكيف غيرنا! وهذه البلاد له، ونحن مماليكه فيها ! وإذا أراد عزلك، فأي حاجة له إلى المجيء، ينفذ كتاباً مع نجاب يأمرك بالمسير إليه حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد،وتفرقوا على هذا، فكتب أصحاب الأخبار إلى نور الدين بصورة الحال وما قال نجم الدين.

وأما نجم الدين فإنه خلا بابنه وقال: ياقليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك، ومتى بلغ نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد قصدك بعساكر الشام والشرق وديار بكر والروم وغيرهم ولم يبق معك أحد وأولهم خالك وغيره ممن ينافسك في الملك، وفي قلوبهم منك ما فيها، وقد كتب أصحاب الأخبار إلى نور الدين بما قلت، فاكتب إليه كتاباً تذعن فيه بالطاعة له، وقل له:مامن حاجة إلى قصدي بنفسك، ابعث أحد غلمانك يحملني إلى بين يديك. فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله كل وقت في شأن.

ففعل صلاح الدين ذلك، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا، عدل عن قصده، واستحيى منه، واشتغل عنه بالفرنج، وكان الأمر كما قال نجم الدين. وتوفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

وفيها اتخذ نور الدين الحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، وكتب بذلك إلى جميع البلاد ، فاتخذت في الأبراج. وكتب منشوراً لأربابها واعزاز أصحابها، ونودي بالتهديد لمن

اصطاد منها شيئاً، وكان سبب ذلك أن مملكته قد اتسعت، وكانت من حد بلاد النوبة إلى همذان لاتتخلها سوى بلاد الفرنج، فكان الفرنج - لعنهم الله - ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونوا قد بلغوا بعض الفرص، فحينئذ أمر بذلك، فوجد بها راحة كبيرة، وكانت الأخبار تأتيه لوقتها لأنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته، وعلقوه على الطير، وسرحوه إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنتقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلاد التي تجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فحفظت الثغور بذلك، حتى أن طائفة من الفرنج نازلوا ثغراً له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة له بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبس العدو ، ففعلوا ذلك، فظفروا بهم، وكان الفرنج قد أمنوا لبعد نور الدين عنهم، فرحمه الله ورضي عنه،فما كان أحسن نظره في الرعايا والبلاد، ووفق الملوك إلى الاقتداء بسيرته:

وما أحسن قول القاضي الفاضل في وصف الحمام: الطيور ملائكة الملوك، يشير بذلك إلى نزولها على الملوك من جو الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء ، مع فرط ما فيها من الأمانة لايتوهم من جهتها خيانة، وقد أطنب في ذلك العماد الكاتب، وأطرب وأعجب وأغرب.

وفيها أسقط الملك الناصر صلاح الدين عن أهل مصر المكوس والضرائب. وقرىء المنشور بذلك على رؤوس الأشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة، وكان مقدار ما أسقطه في السنة من العين مائتي ألف دينار.

وفيها عزل الخليفة المستضيء ابن رئيس الرؤساء وقبض على ابنه كمال الدين، وكان كمال الدين هذا كثير الظلم والعنف في الأحكام، وكان سبباً في عزل والده، تظلمت إليه يوماً امرأة كان يعذب زوجها، وقالت:

خف من دعوة تصادف إجابة ، فاستهزأ، وقال : تحري لها وقت السحر، فلم يكن بعد ذلك إلا أياماً قلائل حتى نكب وأنشد بعضهم:

أتحتقر الدعاء وتزدريه
وما يدريك ما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطي ولكن
لها أمد وللأمد انقضاء

ويقال: إن المرأة صادفته بعد ذلك، فقالت: يا هذا، انتفعت برأيك ومشورتك.

سنة ثمان وستين وخمسمائة

فيها بعث صلاح الدين هدية إلى نور الدين فيها فيل وحمار عتابي مخطط كثوب عتابي، فأهدى نور الدين الفيل إلى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحف الثياب والعود والعنبر، وجهز الحمار العتابي إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا، وخرج الناس للفرجة، وكان فيهم رجل عتابي كثير الدعاوى، وهو بليد ناقص الفضيلة، فقال رجل : إن كان بعث الينا حمار عتابي، فنحن عندنا عتابي حمار.

وفيها سار نور الدين إلى الموصل وصلى في الجامع الذي بناه ،وتصدق بمال كثير، فلما علم صلاح الدين بتوجهه إلى الموصل، خرج بعساكر مصر إلى الشام وحاصر الكرك والشوبك، ونهب أعمالها، وكان جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار إلى الفرنج، وإذا أغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين، فنهبهم صلاح الدين وقتل بعضهم، وأجلى من بقي عن أرض الكرك، ثم عاد إلى مصر.

قال ابن شداد: وهي أول غزاة غزاها صلاح الدين من مصر.

وعاد نور الدين من الموصل، وقطع الفرات وقصد بلاد الروم، وسببه أن الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي قد قصد ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما، وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً به، فأكرمه وأحسن إليه، ووعده النصر والسعي في رد ملكه إليه، وراسل قليج أرسلان ، وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه، وفتح من بلاده بهسنا، ومرعش ومرزبان، وما بينها من الحصون، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، فلما رأى قليج أرسلان ذلك، خاف منه، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصفح عنه والصلح، ورد بلاد ابن الدانشمند، فأجابه إلى ذلك بشروط: منها أن يجدد إسلامه على يد رسول نور الدين، لأنه كان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، ومنها إذا طلب عسكره إلى الغزاة يسيره، ومنها أن يزوج ابنته لسيف الدين غازي ولد أخي نور الدين، وذكر أموراً غيرها، فلما سمع قليج أرسلان الرسالة قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبته إلى ما طلب، أنا أجدد إسلامي على يد رسوله واستقر الصلح، وترك عسكراً في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ابن الدانشمند، فأقام عنده حتى توفي نور الدين ، فرحل العسكر عنها، وعاد قليج أرسلان ملكها.

وفيها شرع نور الدين ببناء مدرسة للشافعية بقرب الجاروخية، وهي المدرسة المعروفة بالعادلية الآن، فأدركه أجله وقد وضع المحراب وبعض البنيان، وبقي أمرها على حاله إلى أن جاء العادل أبو بكر فأزال تلك العمارة وبناها هذا البناء المتقن المحكم ودفن بها.

وفيها اجتمع الفرنج بالشام لقصد زرا، فوصلوا إلى سمكين[٣٧] ، فبرز اليهم نور الدين ، فهربوا منه إلى الفوار، ثم إلى السواد، ثم إلى الشلالة،

فبعث سرية إلى طبرية، فعاثوا هنالك وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا سالمين. ورجع الفرنج خائبين.

وفيها اجتمع السودان العبيد من بلاد النوبة وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين تملك بلاد مصر، وصاروا إلى أعمال الصعيد، وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها، وكان بها كنز الدولة، فأرسل يعلم الملك الناصر، وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع (البعلبكي)، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن خربوا أرضها، فاتبعهم الشجاع وكنز الدولة، فجرى بينهم حرب كثير قتل فيها من الفريقين عالم عظيم، ورجع الشجاع إلى القاهرة، وأخبر بفعال العبيد وتمكنهم في بلاد الصعيد، فأرسل الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة، فسار إليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ما كان فيها من المال والكراع والميرة، وخلص جماعة من الأسرى، وأسر من وجد فيها، وهرب صاحبها. ثم رجع شمس الدولة.

وخلا بالقلعة شخص من الأكراد يقال له ابراهيم، وانضم إليه جماعة من الأكراد البطالين، فشنوا الغارات على بلاد النوبة حتى برحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة، ثم إنهم قصدوا جزيرة في البحر، فغرق أميرهم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي، وأخذوا جميع ما كان فيها، وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النوبة إليها وملكوها، وأنفذ ملك النوبة رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب فيه طلب الصلح، ومع الرسول هدية وعبد وجارية، ، فكتب له جواب كتابه، وأعطاه زوجي نشاب وقال: مالك عندي جزاء إلا هذا، وجهز معه رسولاً يعرف بمسعود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر بلادهم، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنقلة، وهي مدينة الملك ، قال مسعود: فوجدت بلاداً ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار منه أدامهم،

قال: ودنقلة ليس فيها عمارة إلا دار فقط، وباقيها أخصاص. قاله ابن أبي طي.

وفيها كانت وفاة الأمير نجم الدين أيوب بن شادي والد صلاح الدين. سقط عن فرسه فمات بعد ثمانية أيام رحمه الله تعالى، وكان صلاح الدين قد عاد من الكرك، فبلغه خبره بالطريق فحزن عليه، وتأسف حيث لم يحضره.

وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد، وقد أدى الرسالة بالخطبة العباسية، ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين، قريتان من أعمال العراق كانتا قديماً لأبيه عماد الدين زنكي، فأراد نور الدين أن ينشىء ببغداد مدرسة على حافة الدجلة ويقف عليها القريتين، فأدركه أجله، وعاقه القدر عن ذلك، وجاء مع شهاب الدين خمسون ديناراً من دنانير النثار التي نثرت يوم دخوله إلى بغداد بالبشارة، وزن كل دينار عشرة دنانير.

وفيها بعث صلاح الدين سرية صحبة قراقش مملوك تقي الدين عمر ابن شاهنشاه إلى بلاد إفريقية، فملكوا طائفة كبيرة منها، من ذلك مدينة طرابلس الغرب وعدة مدن معها.

وفيها أرسل نور الدين وزيره الموفق خالد بن القيسراني إلى صلاح الدين ليقيم حساب الديارالمصرية، وذلك لأن نور الدين استقل الهدية التي أرسلت إليه من خزانة العاضد، وكان مقصوده أن يقرر على الديار المصرية خراجاً يحمل إليه في كل سنة.

فيها قال ابن الجوزي في المنتظم: إنه سقط ببغداد برد كالنارنج، ومنه ماوزنه سبعة أرطال. ثم أعقب ذلك سيل عظيم وزيادة عظيمة في دجلة، لم يعهد مثلها أصلاً، فخربت شيئاً كثيراً من العمران والقرى

والمزارع حتى القبور، وخرج الناس إلى الصحراء، وكثر الضجيج والابتهال إلى الله تعالى حتى حصل الفرج وتناقص الماء، قال: وأما الموصل فإنه كان بها نحو ما كان ببغداد، وانهدم بالماء نحو من ألفي دار، واستهدم بسببه مثل ذلك، وهلك تحت الهدم خلق كثير، وكذلك الفرات زاد زيادة عظيمة هلك بسببها شيء كثير من القرى، وغلت الأسعار بالعراق في هذه السنة في الزروع والثمار، ووقع الموت في الغنم ، وأصيب كثير ممن أكل منها بالعراق وغيرها.

وفيها قال ابن الساعي: توالت الأمطار بديار بكر وغيرها والموصل أربعين يوماً وليلة لم يروا الشمس سوى مرتين لحظتين يسيرتين ثم تتستر بالغيوم، فتهدمت بيوت كثيرة ومساكن على أهلها، وزادت دجلة بسبب ذلك زيادة عظيمة، وغرق كثير من مساكن بغداد والموصل، ثم تناقص الماء بإذن الله تعالى.

وفيها سار نور الدين نحو بلاد الروم وفي خدمته الجيش، وملك الأرمن وصاحب ملطية وخلق من الملوك والأمراء، فافتتح عدة من حصونهم، وصالح على قلعة الروم، فصالحه صاحبها بخمسين ألف دينار جزية، ثم عاد إلى حلب وقد وجد النجاح في كل ما طلب، ثم أتى دمشق مسروراً محبوراً.

وفيها توجه توران شاه أخو صلاح الدين إلى اليمن فملكها، قال ابن أبي طي: وكان سبب خروج توران شاه إلى اليمن أنه كان كريماً جواداً، وكان إقطاعه بمصر لايقوم بقوته، ولا ينهض بمروءته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان إذا خلا به وصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها، ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم ابن غانم، وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان تعدى

على هذا الشريف، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه. وتجهز ثم دخل على أخيه صلاح الدين، واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له، وأطلق له مغل قوص سنة، وزوده فوق ما كان في نفسه وأصحبه جماعة من الأمراء والجند، وسار في البر والبحر، في البر العساكر وفي البحر الأزواد والعدد، فوصل إلى مكة زادها الله شرفاً، فاعتمر بها، ثم خرج إلى اليمن، فلقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجمع الأشراف من بني سليمان في جمع كبير، فوصل زبيد، فخرج إليه عبد النبي فقاتله فهزمه توران شاه وأسره، وأسر زوجته الحرة، وكانت ذات أموال جزيلة وذخائر جليلة، ونهب الجيش زبيد، ثم سار إلى عدن ففتحها عنوة، وولاها عز الدين الزنجيلي، ثم فتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن فيقال إنه فتح ثمانين حصناً ومدينة، واستولى على أموالها وذخائرها، وقتل عبد النبي بن مهدي، وكان هذا قد تغلب على بلاد اليمن ودعا إلى نفسه، وتسمى بالإمام، وزعم أنه سيملك الأرض كلها، وقد كان أخوه علي بن مهدي قد تغلب قبله عليها، وانتزعها من أيدي أهل زبيد. واستقر توران شاه في ملك اليمن، وخطب للخليفة العباسي، وصفت اليمن من أكدارها، وعادت إلى ما سبق من مضمارها، وكتب إلى أخيه الملك الناصر يخبره بما فتح الله عليه وأحسن إليه، فكتب الملك الناصر بذلك إلى نور الدين، فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن، والخطبة بها، وبكسر الروم مرة ثانية، وكان مما تضمنه كتاب البشارة: ولم ينج من عشرة آلاف غير عشرة (حمر مستنفرة. فرت من قسورة). (٣٨)

وفيها أكثر نور الدين من الصدقات والصلات،وزاد في الأوقاف وكسا الأيتام، وزوج الأرامل، وأغنى الفقراء، وكشف المظالم بحيث لم يبق في بلاده مظلمة.

وفيها وصل رسول نور الدين الموفق خالد ابن القيسراني إلى الديار

المصرية واجتمع بالملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين، فطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من ارتفاع البلاد، فصعب ذلك على صلاح الدين، وأراد شق العصا، وتوجه بالمخالفة والإباء، ولكنه عاد إلى طباعه الحسنة، وأظهر الطاعة المستحسنة، وأمر بكتابة الحساب وتحرير الجواب، فبادر إلى ذلك جماعة الدواوين والحساب، وعرضه على ابن القيسراني، وأراه جرائد الأجناد وبمبلغ إقطاعاتهم وكميات جامكياتهم ورواتب نفقاتهم، فلما حصل عنده جميع ذلك، أرسل معه هدية إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى، وهي خمس ختمات شريفات، إحداها ثلاثون جزءاً مغشاة بأطلس أزرق، مضببة بصفائح الذهب وعليها أقفال ذهب مكتوبة بالذهب بخط يانس، وختمة مغشاة بديباج فستقي عشرة أجزاء بخط راشد، وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد، وختمة بخط مهلهل جزء واحد، وختمة بخط الحاكم البغدادي، وثلاثة أحجار بلخش وزن احداها اثنان وعشرون مثقالاً، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالاً، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف، وست قصبات زمرد: (قصبة) وزنها ثلاثة عشر مثقالاً وثلث وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث، وحجر أزرق وزنه سبعة مثاقيل وسدس، ومائة عقد من الجواهر النفيسات وزنها جميعاً ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالاً، وخمسون قارورة دهن بلسان، وعشرون قطعة بلور، وأربع قطع جزع، وابريق يشم، وطشت يشم، وسقرق ميناء مذهب، وصحون صيني وزبادي وسكارج أربعون قطعة ، وكرتان عود قماري، وزن إحداها ثلاثون رطلاً بالمصري، والأخرى واحد وعشرون رطلاً، ومائة ثوب أطلس، وأربعة وعشرون ثوباً من الحرير، وأربعة وعشرون ثوباً من الوشي، وحلة فلفلي مذهبة، وغير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعدة من الخيل والغلمان والجواري، وشيء كثير من السلاح على اختلاف ضروبة، ومن الذهب عشرة صناديق مقفلات مختومات لم يعلم مقدار ما فيها، فلما فصلت العير عن الديار المصرية لم تصل إلى الشام حتى مات نور الدين رحمه الله، فمنها ما أعيد، ومنها ما استهلك لأن الفقيه عيسى

وابن القيسراني وضعا عليهم من نهبهم واستبدوا بأكثرها، وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان لأنه اتصل به خبر موت نور الدين ، فأنفذ من ردها.

وفيها صلب عمارة اليمني الشاعر وأصحابه، وسبب ذلك أنه اجتمع جماعة من رؤوس الدولة الفاطمية الذين كانوا فيها حكاماً، فاتفقوا فيما بينهم أن يردّوا الدولة الفاطمية، فكتبوا إلى الفرنج يستدعونهم إليهم، وعينوا خليفة من الفاطميين ووزيراً، وذلك في غيبة السلطان ببلاد الكرك، ثم اتفق مجيئه، فحرض عمارة شمس الدولة توران شاه على المسير إلى اليمن ليضعف بذلك الجيش عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين. فخرج توران شاه ولم يخرج معه عمارة، بل أقام في القاهرة يفيض في هذا الحديث ويداخل المتكلمين فيه ويصافيهم، وكاد أمرهم أن يتم (ويأبى الله إلا أن يتّم نوره) (٣٩) فأدخلوا في الشورى الواعظ زين الدين بن نجا، فأظهر لهم أنه معهم، ثم جاء إلى صلاح الدين وأخبره بما تمالأوا وتعاقدوا عليه، وطلب من السلطان ما لابن كامل من الحواصل والعقار فبذله له، وأمره بمخالطتهم وتعريف شأنهم، فصار يعلمه بكل متجدد، فجاء رسول ملك الفرنج بالساحل إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ، وفي الباطن إليهم، وأتى الخبر إلى صلاح الدين بجلية الحال من بلاد الفرنج.

وقيل إن عبد الصمد الكاتب كان يلقى الفاضل بخضوع زائد، فلقيه يوماً فلم يلتفت إليه، فقال القاضي الفاضل: ما هذا الاّ لسبب، فأحضر ابن نجا الواعظ وأخبره الحال ، وطلب منه كشف الأمر، فأخبره بأمرهم، فبعثه إلى صلاح الدين فأوضح له الأمر، فاستدعاهم السلطان واحداً واحداً وقررهم، فأقروا بذلك فاعتقلهم، ثم استفتى الفقهاء في أمرهم فأفتوه بقتلهم، فعند ذلك أمر بقتل رؤوسهم وأعيانهم وأتباعهم وعلمائهم، وأمر بنفي من بقي من جيش العبيديين إلى أقصى البلاد،

وأفرد ذرية العاضدوأهل بيته في دار فلا يصل إليهم إصلاح ولا إفساد، وأجرى عليهم ما يليق بهم من الأرزاق والثياب، وقد كان عمارة معادياً للقاضي الفاضل، فلما حضر عمارة بين يدي السلطان قام القاضي الفاضل إلى السلطان ليشفع فيه عنده، فتوهم عمارة أنه يتكلم فيه، فقال: يامولانا السلطان، لاتسمع منه ، فغضب القاضي الفاضل وخرج من القصر، فقال له السلطان: إنما كان يشفع فيك، فندم ندماً عظيماً، ولما ذهب به ليصلب طلب أن يمروا به على مجلس القاضي الفاضل، فاجتازوا به عليه، فأغلق بابه، فقال عمارة:

عبد الرحيم قد احتجب
إنّ الخلاص هو العجب

وصلب هو والجماعة بين القصرين، وكان الذين صلبوا منهم: الفضل ابن القاضي، وهو أبو القاسم هبة الله قاضي قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين، وابن عبد القوي داعي الدعاة، وقد كان يعلم بدفائن القصر، فعوقب ليدل عليها فامتنع من ذلك، فمات واندرست ، والعوريس، وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصمد أحد أمراء المصريين، ونجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني قد قال لهم إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمني، وكان عمارة هذا ينتسب إلى الرفض ويتهم بالزندقة والكفر، ذكر العماد الكاتب في الخريدة أنه قال في قصيدته التي يقول في أولها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
قد كان أول هذا الدين من رجل
سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولا عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، قال: ولعمارة في مصلوب بمصر يقال له طرخان، وكان قد

خرج على الصالح بن رزيك فظفر به الصالح فصلبه، فقال فيه عمارة:

أراد علو مرتبة وقدر
فأصبح فوق جذع وهو عال
ومد على صليب الجذع منه
يمينا لا تطول إلى الشمال
ونكس رأسه لعتاب قلب
دعاه إلى الغواية والضلال

قال العماد: فكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره.

وحكى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز : أن القاضي العوريس رأى عيسى بن مريم عليه السلام وكأنه أخرج رأسه من السماء، فقال له العوريس: الصلب حق، فقال له عيسى بن مريم: نعم، فعبرها العابر، وقال: صاحب هذه الرؤيا يصلب لأن عيسى معصوم ولايمكن أن يكون ذلك راجعا إليه لأن الله تعالى قص لنا أنه لم يصلب، فينبغي أن يكون راجعاً إلى الرائي، وكان الأمر كما قال: وكتب صلاح الدين إلى نور الدين بما وقع منهم وبهم من الخزي والنكال، قال العماد: فوصل الكتاب يوم وفاة نور الدين.

وفيها وصل أسطول الفرنج من صقلية، فنازلوا الاسكندرية بغتة ، (بناءٍ) على مراسلة الذين صلبوا، وكان معهم ألف وخمسمائة فرس، وعدتهم ثلاثون ألف مقاتل ما بين فارس وراجل. وكان معهم مائتا شيني وست سفن كبار وأربعون مركباً، فبدر إلى حربهم أهل الثغر، فحملوا على المسلمين حملة أوصلتهم إلى السور، ففقد من المسلمين فوق المائتين. فلما أصبحوا، زحفوا على الاسكندرية، ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها، وهي الأبراج، وثلاث مناجيق ترمي بحجارة سود استصحبوها من صقلية، وزحفوا إلى أن قاربوا السور، فرأى الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية ما راعهم. وبعثت بطاقة إلى الملك الناصر، فبادر وحضر،

واستمر القتال يومين، وفي اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وكبسوا الفرنج على غفلة، فأحرقوا الدبابات، وصدقوا اللقاء، ودام القتال إلى العصر، ونزل من الله النصر، وقتل من الفرنج خلق، ورد المسلمون إلى البلد لأجل الصلاة، ثم كبروا عند المغرب وهاجموا الفرنج في خيامهم، فتسلموها بما حوت وقتلوا من الرجالة ما لا يحصى، واقتحم المسلمون البحر فغرقوا المراكب وحرقوها، وهربت بقية المراكب، وصار العدو بين أسير وقتيل وغريق، واحتمى ثلاثمائة فارس في تل فأخذوا أسرى، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة ولله الحمد.

وفيها كانت وفاة الملك العادل نور الدين، وكان رحمه الله قد ركب يوم عيد الفطر إلى الميدان الأخضر القبلي وصلى فيه صلاة العيد، ورمى القبق في الميدان الشمالي، ومد سماطا حافلا، وظهر ولده الملك الصالح إسماعيل في هذا اليوم، وزينت له البلد، وضربت البشائر، وكان يوم الأحد، ثم ركب يوم الاثنين وأوكب على العادة، وكان معه همام الدين مودود، فقال لنور الدين: هل تكون ها هنا في مثل هذا اليوم من العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل تكون بعد شهر، فإن السنة بعيدة! فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر وهمام الدين لم يصل إلى العام.

ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه، فاعترضه بعض الأمراء وقال له: باش، فغضب لذلك، ولم يكن ذلك من سجيته. وساق ودخل في القلعة، فحصل له نبو مزاج، واشتغل بنفسه وأوجاعه، وتنكرت عليه جميع حواسه وطباعه، واحتبس اسبوعا عن الناس، والناس في شغل عنه بما هم فيه من اللعب والانشراح في الزينة التي نصبوها لأجل طهور ولده، فانعكست تلك الافراح بالأتراح ونسخ الجد ذلك المزاح، وحصل للملك العادل خوانيق في حلقه منعته من النطق، وكان قد أشير عليه بالفصد فلم يقبل، وبالمبادرة إلى المعالجة فلم يفعل، وكان

أمر الله قدراً مقدوراً. فلما كان يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال من هذه السنة قبض إلى رحمةالله تعالى وقت طلوع الشمس عن ثمان وخمسين سنة، مكث منها في الملك ثمانية وعشرين سنة، وصلى عليه بجامع القلعة، ودفن بالقلعة، ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لاصحاب أبي حنيفة بجوار الخواصين، وكانت دار سليمان بن عبد الملك رحمه الله تعالى وقبره بها يزار ويخلق شباكه ويطيب، ويتبرك به كل مار ويقول: قبر نور الدين الشهيد لما حصل له من الخوانيق، وكذا يقال لأبيه الشهيد لأنه قتل ظلماً.

وفيها بويع بعد موت نور الدين لولده الملك الصالح اسماعيل. وكان صغيراً لم يبلغ الحلم، وجعل أتابكه الأمير شمس الدين ابن المقدم، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام . وأطاعه صلاح الدين بمصر وخطب له بها، وضرب السكة باسمه فيها.

ثم بعد ذلك اختلفت الأمراء ، وحارت الآراء ، وظهرت الشرور، وكثرت الخمور، وقد كانت لاتوجد في زمانه، ولايجسر أحد أن يتعاطى شيئاً منها ولا من الفواحش، وانتشرت الفواحش وظهرت حتى إن ابن أخي نور الدين سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل لما تحقق موت عمه ــ وكان محصوراً منه ــ نادى مناديه في البلد بالمسامحة في اللعب واللهو والشراب المنكر والطرب، ومع المنادي دن وقدح ومزمار الشيطان، فانا لله وانا إليه راجعون. وقد كان ابن أخيه هذا وغيره من الأمراء والملوك الذين حكم عليهم لايستطيع أحد منهم أن يفعل شيئاً من المناكر والفواحش. فلما مات برح أمرهم وعاثوا في الأرض فسادا. وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين.

وعزم الفرنج على قصد دمشق وانتزاعها من أيدي المسلمين، فبرز إليهم ابن المقدم الأتابك، فواقعهم عند بانياس وضعف عن مقاومتهم

فهادنهم مدة، ودفع إليهم أموالاً جزيلة عجلها لهم، ولولا أنه خوفهم بقدوم الملك الناصر صلاح الدين لما هادنوه.

ولما بلغ ذلك صلاح الدين ، كتب إلى الأمراء وخاصة ابن المقدم يلومهم على ما صنعوا من المهادنة ودفع الأموال إلى الفرنج، وهم أقل وأذل، وأخبرهم أنه عزم على قصد البلاد الشامية ليحفظها من الفرنج، فردوا إليه كتاباً فيه غلظة، وكلاماً فيه بشاعة، وكتبوا إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل ليملكوه عليهم ليدفع عنهم كيد صلاح الدين ، فلم يجبهم لأنه خاف أن تكون مكيدة منهم.

ثم توجه الملك الصالح إلى حلب، وأقام بها إلى أن توفي في سنة سبع وسبعين . وكان صالحا كما سمي، لما اشتد به المرض وضعف وصف له الأطباء قليل خمر ، فقال: لا أفعل حتى أسأل الفقهاء. فأفتاه بعضهم بالجواز فلم يفعل، وقال : إن كان الله قد قرب الأجل يؤخره شرب الخمر؟ قيل له :لا ، قال: فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرم الله، قال: فمات ولم يشربه. رحمه الله ورحم أباه وجده، وعوضهم الجنة بمنه وكرمه.

والحمد لله رب العالمين.